التـــراث المخطوط

رؤية معرفية فى التبصير والفهم

(1)

علوم الدين لحجة الاسلام
أبى حامد الغزالى

دكتور
خالد حربى



تليفاكس: ٠٣/٥٢٧٤٤٣٨ الإسكندرية

التراث المخطوط

رؤية فى التبصير والفهم
مستقلة عن النمط الاستشراقى

(1)

علوم الدين لحجة الإسلام
أبى حامد الغزالى

تأليف

الدكتور

خالد أحمد حسنين على حربى

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

2004

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: 5274438 الإسكندرية

الناشــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفـــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com

dwdpress@biznas.com

Website

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب : التراث المخطوط رؤية معرفية فى التبصير والفهم (١) علوم الدين للغزالى

المؤلـــف: د. خالد حربى

رقـم الإيداع: ١٩٧٩ / ٢٠٠٥ م

الترقيم الدولى: 6 - 542 - 327 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

"لَقَد كَانَ فــي قَصصِهِم عِبـرَةٌ لأُولــى الأَلبَاب مَا كَانَ حَــدِيثاً يُفتَرى وَلكِن تصَديق الذَّى بيــن يَدَيهِ وتَفصيل كُلّ شَــئٍ وَهُــدىً وَرَحــمــةً لــقــوم يُــؤمِــنُــون"

(سورة يوسف، آية 111)

مقدمة وأهداف الكتاب

من الثابت أن التراث يمثل ذاكرة أى أمة من الأمم، وعليه، فإن أى أمة تحاول أن تُهمل أو تتناسى أو تنسى تراثها، تكون بمثابة الإنسان الذى فقد ذاكرته، وتراه يترنح بين لحظات الحاضر بدون أى وعى بماضيه أو مستقبله، والنتيجة النهائية لمثل هذا الوضع - إن لم تُسترد الذاكرة - هى "فقدان الذات" أى فقدان الماضى والحاضر والمستقبل. فكأن التراث يمثل أساساً قوياً فى حاضر الإنسان، وفى الوقت نفسه يدفعه إلى المستقبل.

ومن هنا يأتى الاهتمام بأهمية التراث العربى الإسلامى، خاصة وأن هذا التراث يحتل مكاناً مرموقاً فى تاريخ العلم العالمى - مجال اهتمام العالم المتقدم حاليا -، ويمثل حلقة مهمة جداً - إن لم تكن أهم الحلقات - فى سلسلة المعارف والحضارة الإنسانية بصفة عامة، وذلك يرجع إلى أن تراث الحضارة العربية الإسلامية قد ساد البشرية أطول من تراث أى أمة أخرى، فعلى مدار أكثر من ثمانية قرون كان العلم على مستوى العالم "ينطق بالعربية".

وعلى ذلك فإن إحياء (وتفعيل) التراث العربى الإسلامى واجب قومى- على مستوى الأمة الإسلامية، وليس على مستوى القومية العربية فقط - يجب أن تستثار لأجله الهمم، وتكثف لأدائه الجهود. وبالفعل هناك جهود تبذل فى سبيل الاهتمام بما تمتلكه الأمة من المخطوطات العربية الإسلامية المبعثرة فى جميع أنحاء العالم، فهناك جهود مؤسساتية على مستوى الجامعات والمراكز العلمية الأكاديمية، وجامعة الدول العربية بالإضافة إلى الجهود الفردية.

لكن اللافت للنظر أن الشق الأكبر من هذه الجهود قد تركز على الاهتمام بجمع المخطوطات وتصويرها من هنا وهناك **وفهرستها، ثم**

تخزينها على رفوف المكتبات، أو عرضها فى متاحف كالآثار المادية المجسمة، بل وعقد المؤتمرات الدولية التى تُخصص (لعرض) صفحات من المخطوطات، بدون أدنى تعرض لدراسة محتواها المعرفى والعلمى. وتلك هى الحالة السائدة والغالبة على التعامل مع المخطوطات العربية الإسلامية، وذلك منذ أن بدأ هذا التعامل – بتوجيه من الاستشراق – مع منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن.

أما الشق الأصغر من الجهود، وهو (الأهم)، فيتمثل فى فهم وتحقيق ونشر المخطوطات. ويتبين حجم هذا الشق إذا علمنا أن نسبة ما حُقق ونُشر من مخطوطات تراثنا العربى الإسلامى حتى الآن لا تزيد على ستة فى المائة (6%)، ومازالت النسبة المتبقية فى صورتها المخطوطة، وخاصة المخطوطات العلمية. وسوف أُشير أهم أسباب ذلك فى موضع لاحق.

فأن سأل سائل بسؤال واقع: لماذا توجه الجهود العظمى إلى الفهرسة وملحقاتها، ولا توجه إلى التحقيق والنشر؟ أجبت بأن **الفهرسة وما يلحق بها من متاحف ومعارض، يُعد عملاً (عضلياً) يعتمد فى المقام الأول على النواحى المادية، ويمكن أن يقوم به أى فرد.** فى حين يُعد الشق الثانى الخاص **بالدراسة والتحقيق عمل (علمى وفكرى، دقيق وشاق)**، وشتان ما بين العمل العضلى والعمل العلمى، خاصاً إذا كان دقيقاً وشاقاً، وللمتدبر أن يتدبر ويعى!.

إننى أتصور أن الشق الأول الخاص بالفهرسة وملحقاتها من معارض ومتاحف المخطوطات يعمل فى إطار **توجه استشراقى موجه، إذ** إن المستشرقين منذ أن عاودوا التنقيب فى المخطوطات العربية الإسلامية

إبان منتصف القرن التاسع عشر، أرادوا من العرب والمسلمين أن يتعاملوا مع مخطوطاتهم هكذا، بدون التعرض لدراسة المحتوى العلمى أو المعرفى للمخطوطـــة، أو محاولـــة معـــرفة كيف وصل العالم أو المفكر العربى، والمســـلم لما وصل إليه فى مخطوطته، وذلك يتطلب التساؤل والبحث عن المـــنهج الـــذى انتهجه هذا العالم أو ذاك المفكر. وما هى القيمة العلمية أو المعرفـــية لما وصل إليه، فهل خضع خضوعاً تاماً لأبحاث وأفكار علماء عصره وسابقيه، أم طورها، أو عدّلها أو حتى ألغاها وأتى بجديد؟

كـــل هذه الأسئلة وغيرها من المفروض أن تدخل فى صميم منهج تحقـــيق ودراســـة المخطوطات، وذلك ما لا يريده المستشرقون الغربيون، وإنمـــا يريدون أن يظل العرب والمسلمين **يفهرسون ويعرضون ما لديهم مـــن مخطوطات كيما يستمروا فى التغنى بمآثر الأجداد**، وهم فى مثل هذه الحالة (المقصودة) يكونون كمن يفتخر بالبطل ولا يعرف (ولا يفهم) سبيل وكيفية الوصول إلى البطولة.

إن مـــا يؤيد ويعزز طرحى هذا، إننا نرى بين الفنية والفنية ظهور أكثر من فهرس لمكتبة مخطوطات واحدة، فتنشأ المعارك الفكرية (الهزلية) – التى تأتى على هوى الاستشراق – بين من قام بالفهرسة، وبين من يريد أن يفهرس من جديد بحجة أن المفهرس الأول وقع فى أخطاء (إحصائية)، وســـقط من فهرسه مخطوطات موجودة فى المكتبة. فما يكاد يظهر فهرس المفهـــرس الأول، حتى نرى فهرس المفهرس الثانى وهكذا دواليك، وخير وأحـــدث مـــثال علـــى ذلك فهرسا مخطوطات المكتبة المركزية بجامعة الإســـكندرية، إذ نُشـــر الفهرس الثانى فى مدة لا تتجاوز أربعة أو خمسة أعـــوام مـــن نشر الفهرس الأول. وربما يقوم مفهرس ثالث بنشر فهرس

جديـد فـى المسـتقبل القريب، مع العلم أنه كان يوجد فهرس **(قديم)** لهذه المكتـبة – الذى اعتمد عليه أئمة المحققين من جيل الرواد أمثال: محمود شاكر وعبد السلام هارون، وغيرهما.. ومن المستشرقين ماكس مايرهوف – مـثلما كـان يوجد فهرس (قديم) أيضاً لمكتبة المسجد الأحمدى بطنطا، ومع ذلك نُشر فهرس جديد. وهذا الكلام ينطبق على عدد كبير من مكتبات المخطوطـات، ليس فى مصر فحسب، بل وفى العالم العربى والإسلامى. وهكذا يريد منّا الاستشراق أن نظل ندور فى هذه الحلقة المفرغة.

وفـى الوقـت الذى ينشغل فيه العالم العربى والإسلامى **بفهرسة** و**(عدّ)** ما لديه من تراث مخطوط، فإن الغرب قد أعد العدة لدراسة وتحقيق مـا يسـتطيع الحصـول عليه من مخطوطات عربية إسلامية، فخصص الباحثيـن والمستشـرقين، واعـتمد الميزانيات، وأنشأ المعاهد والمراكز الأكاديمـية الخاصة بهذا الغرض مثل معهد سيميزونيان Simithonian Institute بواشـطن، ومعهـد ولكم Wellcome Institute بلندن، إلى جانـب مراكـز بـاريس والاسـكوريال، وهولندا، والفاتيكان، وأسبانيا.. وغيرها.

إن إنشاء مثل هذه المعاهد والمراكز العلمية ليؤكد بصورة جليّة أن الغـرب قد عاود التفتيش فى المخطوطات العربية الإسلامية أملاً فى مزيد مـن العلـم، وبعد أن رأى أن ورثة هذه المخطوطات قد اكتفوا بتخزينها وتخصـيص الميزانيات الضخمة لفهرستها من آن إلى آخر، دون تحقيقها ونشـرها، اللهـم إلا بعض المجهودات الأكاديمية والفردية المتفرقة والتى تقتضى بعضها "المصلحة" فى معظم الأحيان، كأن يحصل المحقق بتحقيقه لإحدى المخطوطات على درجة الماجستير أو الدكتوراه.

إن عملية فهرسة المخطوطات، وإن كانت لا تخلو من قيمة علمية تفيد سائر الباحثين من حيث إنها تحصر عدد مخطوطات المكتبة المفهرسة وتختصـــر الوقـــت الـــلازم للبحث عن نسخ المخطوطات المراد دراستها وتحقـــيقها، إلا أنها لا ينبغى أن تستمر بهذه الصورة الآلية، فنظل نفهرس المخطوطـــات على طول الوقت، - كل مكتبة على حدة - وكأننا (حَفَظَة) لهـــذه المخطوطات، لا ورثة شرعيين، لهم الحق، وعليهم واجب الغوص العميق فى هذا اليم الكبير لاستخراج كنوزه ودرره.

وإذا كان بعض المفكرين والكتّاب العرب والمسلمين قد فطنوا إلى مـــآرب الاستشراق، فتوجهوا إلى دراسة وفهم وتحقيق المخطوطات، فإن الجانـــب الاستشـــراقى كان لديه أيضاً أسلحة (خبيثة) مضادة لهذا الاتجاه، فـــنراه يوجـــه جهود العلماء المحققين نحو تحقيق مخطوطات بعينها مثل المخطوطـــات التى تعزز اتجاه أو مذهب معين، وفى الوقت نفسه تزيد من هـــوة الخـــلاف بين مذاهب الأمة الإسلامية. فإذا كان المذهب السنى هو المذهـــب السائد بين، السواد الأعظم من المسلمين فى جميع أرجاء العالم، تـــرى المستشرقين - ومعهم بعض المحققين العرب والمسلمين - يركزون جُـــلّ اهتمامهم نحو تحقيق ونشر مخطوطات التصوف مثلا وبصفة خاصة مخطوطـــات التصـــوف الفلسفى التى تحتوى على نظريات صوفية فلسفية عمـــيقة لا يستطيع أن يفهمها إلا الخاصة أو خاصة الخاصة. ونفس الكلام ينطـــبق علـــى مخطوطات المذهب الشيعى، أو مخطوطات الفرق الضالة كالدروز، والحشاشين، والباطنية.. وغيرهم. وغرض الاستشراق من مثل هـــذا الاتجاه واضح لكل لبيب، وهو بث الفرقة وتوسيع هوة الخلاف بين المذاهب المختلفة.

لم يكتف المستشرقون بتحقيق ونشر مثل هذه المخطوطات فقط، بل رأيناهم يهتمون أيضاً بتحقيق ونشر المخطوطات الأدبية بغرض صرف نظر العرب والمسلمين عن مخطوطاتهم العلمية التى تعمل على تفعيل وتواصل ملكة العقل بينهم وبين أسلافهم من علماء الحضارة العربية الإسلامية.

إن الواقع ليشهد أن المخطوطات العربية – الإسلامية التى حققت ونشرت – أو التى نُشرت بدون تحقيق – منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى أواخر القرن العشرين، جاءت غالبيتها منصبة على الناحية الأدبية، فى مقابل نسبة ضئيلة جداً للمخطوطات العلمية. ولحسن الحظ تنبه بعض المحققين العرب والمسلمين (الجادين) مؤخراً إلى نوايا الاستشراق، فبدءوا يهتمون بتحقيق ونشر المخطوطات العلمية.

وينبغى هنا ألا يفهمن فاهم أننى ضد تحقيق ونشر المخطوطات الأدبية، بل على العكس أؤيد وأناصر هذا الاتجاه بدافع قومى قوى، لكننى فقط ضد القسمة غير العادلة التى وضعها الاستشراق – بصدد تحقيق ونشر المخطوطات العربية الإسلامية فحوالى 90% أو 95% للمخطوطات الأدبية، والباقى للمخطوطات العلمية، فافهم!

وقبل أن يسألنى سائل عن غرض الاستشراق من ذلك، أود أن أشير إلى أننى أنادى بتساوى القسمة فى تحقيق ونشر المخطوطات بين المخطوطات الأدبية والمخطوطات العلمية، فضلاً عن المخطوطات الروحية (الدينية الصحيحة) طبعاً، وذلك لأن الحضارة العربية الإسلامية، لم تقم، ولم يكتمل بناءها المجيد على النواحى الروحية وحدها، أو النواحى الأدبية فحسب، أو النواحى العلمية فقط، بل قامت عليها جميعاً بنسب

متساوية لسبب بسيط جداً، وهو أن هذه النواحى كانت تكمل بعضها بعضاً إبان عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. وعليه فلا ينبغى أن توجه جهـــود تحقـــيق ونشر مخطوطات تلك الفترة الذهبية من تاريخ الأمة تجاه ناحية واحدة فقط من نواحيها المترابطة.

أمـــا غرض الاستشراق من محاولة إقصاء العرب والمسلمين عن تحقيق المخطوطات العلمية، فيرجع إلى أن هذه المخطوطات تحوى كنوزاً واكتشـــافات علمـــية عربية إسلامية أصيلة، لم تكن موجودة قبلهم، وأثرت بعدهـــم تأثيراً بالغاً فى الإنسانية جمعاء. والأمثلة أكثر من أن تذكر هنا[1]، ولكـــن لا ضير من ذكر بعضها من حيث إن المستشرقين – ومن شايعهم من أبناء جلدتنا – يريدون ويتمنون أن ينسى أو يتناسى العرب والمسلمين الحالييـــن، أن أسلافهم إبان عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، هم الذيـــن اكتشـــفوا المنهج العلمى التجريبى، وهم الذين قاسوا محيط الأرض وقـــالوا بكرويـــتها، وهـــم الذين اخترعوا علم الجبر للعالمين، وهم الذين وضـــعوا علـــم الاجتماع، و هم الذين اكتشفوا مرض الجدرى والحصبة، والـــدورة الدمويـــة الصـــغرى وجـــرثومة الجرب التى تسمى "صؤابة"، واخـــترعوا خـــيوط الجراحة والحقن الشرجية، والغذاء الصناعى لمختلف حـــالات شـــلل عضـــلات المعـــدة.. إلى غير ذلك من الانجازات الطبية والعلاجـــية التى تُحسب لهم حتى اليوم. واكتشفوا أيضاً كثير من المركبات الكيميائـــية مـــثل: حامض الكبريتك، وحامض النيتريك، والصودا الكاوية، ونـــترات الفضـــة، وثانى أكسيد الزئبق، وحامض النيتروهيدروكلوريك.. وغـــيرها. وكل ذلك فضلاً عن إسهاماتهم المثيرة فى علوم الفلك، وطبقات

---

(1) أنظـــر فـــى ذلك كتابى بنيّة الجماعات العملية العربية الإسلامية، دار الوفاء، الإسكندرية 2002.

الجــو والرياضــيات والصيدلة، والفيزياء، والفلاحة.. و.. وإن مثل هذه الإنجــازات العملمــية العربــية الإسلامية، لتكشف بصورة جليّة عن أن المستشــرقين (يتنكــرون) عليــنا أن نكونوا ورثة شرعيين لعلماء علموا العالم!

لكــل ما سبق ينبغى أن توجه الجهود والميزانيات (**الضخمة**) التى توجــه لفهرســة المكتــبات (**المفهرســة**) إلــى نشــر الهام والفاعل من المخطوطــات، إمــا محققــة، وإما ممهدة للتحقيق وقابلة للفهم والتبصير. والتحقــيق بمنهجه، معروف، أما القابلية للفهم والتبصير، فتلك وجهة نظر جديدة أطرحها وأطبقها هنا.

مــن الثابت لدى المحققين (الجادين) أن أهم وأدق خطوات التحقيق إنمــا تتمثل فى محاولة الوقوف على أدق وأقرب نص أراده صاحبه، وهو المؤلــف، الأمر الذى يستلزم صحبة هذا المؤلف ومؤلفاته الأخرى، وتلك الصُحبة قد تطول فى بعض الأحيان لتصل إلى سنوات. وهذا ما يفسر لنا إحجــام المحققين عن التحقيق، وندرتهم بصفة عامة. فكثيراً ما نسمع من بعــض الأســاتذة أنهــم يفضلون "تأليف" خمسة مؤلفات أهون عليهم من التصدى لتحقيق مخطوطة!

ومن أهم خطوات التحقيق أيضاً، "**القراءة المستوعبة**" للنص المراد تحقــيقه، فإذا استطاع المحقق أو دارس المخطوطة أن يقرءها قراءة دقيقة وواعية يخرج منهما (**باستيعاب**) النص و(**فهمه**)، وهو بذلك يكون قد قطع شــوطاً مهماً فى سبيل التحقيق، ذلك الذى تتطلب بقية مراحله وقتاً طويلاً، فمن الممكن، بل من المفيد أن يبصرنا (مستوعب وفاهم) النص بالمضمون العلمى أو الفكرى للمخطوطة عن طريق نشر النص بعد تحليله وتلخيصه

وفهمــه، باذلاً قصارى جهده فى تقديم صورة أمينة للمعلومات والمعارف التى وضعها مؤلفها فى مخطوطه.

إن هذا الطرح الذى أطرحه هنا يحقق فوائد جمة، أستطيع أن أُشير إليها فيما يلى:

1- الحفاظ على المضمون والمحتوى العلمى للمخطوط، عن طريق طباعــته، وبالــتالى ســيظل الكتاب المطبوع متداولاً بين الأجيال بخلاف الكتاب المخطوط.

2- يعوّض الكتاب المطبوع، ضياع أو فقدان أو تلف، أو (سرقة) الكــتاب المخطــوط، ففى مثل هذه الحالات (الشهيرة) نستطيع أن نتعرف علــى ما أراده مؤلف المخطوط من خلال الإطلاع على الكتاب المطبوع (المستوعَبْ).

3- تيســير البحث العلمى للباحثين، وخاصة فى مرحلة الدراسات العليا، والتى يفضل ويُستحسن فيها دائماً الرجوع إلى مَظآن العلم الأصلية، وهــى المخطوطات. فأى وقت وجهد يوفره الباحث الذى يريد البحث فى مخطوطــات أى علــم مــن العلــوم، ويجد أمامه مضمون ومحتوى هذه المخطوطات فى صورة مطبوعة، تهيأ وتشجيع له الإقبال عليها والاستفادة منها فى حالة عدم توفر المخطوطات الأصلية، أو صعوبة الحصول عليها.

4- إن هذه العملية المقترحة التى تتضمن تحليل وتلخيص نصوص المخطوطــات الهامــة، وطبعها فى صورة مفهومة، تعد من قبيل المهــام القومــية الــتى تساعد فى رصد وتحديد وتقويم ذاكرة الأمة عبر تاريخها الطويــل، وتعمل فى الوقت نفسه على دفع عجلة التقدم العلمى والحضارى إلى الإمام.

5- تُعد هذه المهمة القومية محاولة للكشف عن كنز دفين لعلم من أعلام الحضارة العربية الإسلامية فى أحد كتبه المخطوطة التى عفى عليها الزمـن، ولـم يـتطرق أحد إلى دراستها وفهمها أو تحقيقها ونشرها. وقد يحـدث أن تقع هذه المخطوطة أو تلك فى أيدى أحد الغربيين، فيكشف ما بها من كشوف علمية، ثم ينسبها لنفسه، ولنا فى قسطنطين الأفريقى (اللص الوقح)، ونيوتين، وهارفى، وأشتال، وغيرهم من الغربيين الأسوة الحسنة، مع الاعتذار لجابر بن حيان، والحسن بن الهيثم، وابن النفيس، وابن زُهر، وغيرهم من علماء الحضارة العربية الإسلامية الخالدين.

6- إن التقليـب والتفتـيش والتمحيص والدراسة فى المخطوطات العربـية الإسـلامية ومحاولة فهمها ليوضح بصورة جليّة أن مخطوطات حضارتنا العربية الإسلامية مازالت تحوى كنوزاً وذخائراً لم يُكشف عنها بصـورة لائقـة حـتى الـيوم. ومن بين هذه الذخائر وتلك الكنوز، علوم بأكملها، أبدعها العقل العربى الإسلامى، ولم تنل نصيبها الوافى من الكشف والبيان والتبيّين والدراسة، خاصة وإن منها علوم مازالت فاعلة حتى اليوم.

ومـن أهم هذه العلوم - على سبيل المثال - وأكثرها فاعلية حتى هـذه اللحظـة، الطـب النفسى التطبيقى، أو ما يمكن تسميته "علم النفس العـربى الإسـلامى" الـذى يُعـد ابتكاراً عربياً إسلامياً خالصاً باعتراف الغربيين، ومع ذلك قلما نجد أياً من الكتابات العربية قد أُفردت لهذا العلم، اللهم إلا بعض السطور المتناقلة بين بعض كتب تاريخ العلوم عند العرب، وربما يرجع سبب هذا الإجحاف إلى إن مكونات هذا العلم القديم - الحديث متـناثرة بين أوراق المخطوطات العربية الإسلامية، وخاصة الطبية منها، ومعـروف أن السواد الأعظم من كتابات تراثنا المجيد مازال مخطوطاً -

ولاسـيما الـتراث العلمى – فلم يحقق منه إلا نسبة 6% أو ما يربو عنها بقليل، وللاستشراق، كما ذكرت، دور فى هذا التوجه، إذ يندر أن تجد فى كـتابات المستشـرقين، مـنذ أن عاودوا التنقيب فى المخطوطات العربية الإسـلامية إبان منتصف القرن التاسع عشر، أى كتابات مستقلة عن الطب النفسى أو علم النفس العربى، فسلك الكتّاب العرب نفس مسلكهم.

وأمـام هذا الوضع ومع صحبتى للمخطوطات العربية الإسلامية، دراسـة وفهمـاً وتحقـيقاً على مدار أكثر من عشر سنوات، رأيتنى أمام محاولـة "تأصـيل" علم النفس العربى الإسلامى، وهاك مقتطفات من هذه المحاولة:

من الثابت أن منظومة الطب العربى الإسلامى فى عصر ازدهارها قد تشكلت عبر مراحل مختلفة، بدءاً بترجمة علوم الأمم الأخرى – خاصة اليونان –، ومروراً بالدراسة والاستيعاب والتنقيح والنقد، وانتهاءً بالابتكار والإبداع.

هذا فيما يتعلق بالطب الجسمى، أما فيما يخص الطب النفسى، فيكاد يكون للعرب والمسلمين السبق فى هذا الميدان، حيث استند العلاج النفسى خـلال عصـور التاريخ قبلهم إلى السحر، ورد المرض النفسى إلى قوى شـريرة فى استخدام الرقى والتمائم والتعاويز. ففى الحضارة اليونانية كان يعـتقد أن الشفاء من الأمراض النفسية يستلزم أن ينام المريض فى هيكل خاص، حيث يتم شفاءه بمعجزة تحل بجسده فى الليلة الواحدة التى يقتضيها فى ذلك الهيكل. ولقد اقتصرت الآفاق الخلفية فى الطب اليونانى على القسم الأبوقـراطى الشـهير والـذى كان مضمونه أن يقسم كل طبيب للأرباب والـربات مـن أمثال أبولون، وسكلابيوس، وهجيايا وبيناكيا وغيرهم بأن

"يذهب إلى كل البيوت لفائدة مرضاها دون الذهاب إلى أصحاب الأمراض المستعصية، هؤلاء الذين لا يرجى شفاءهم، وكان ذلك استناداً إلى التعريف الأبوقـــراطى للطب "بالفن الذى ينقذ المرضى من آلامهم ويخفف من وطأة النوبات العنيفة، ويبتعد عن معالجة الأشخاص الذين لا أمل فى شفائهم، إذ أن المرء يعلم أن فن الطب لا نفع له فى هذا الميدان"[1].

وهـــنا نجـــد الرازى كأعظم أطباء العرب والمسلمين وأكبر أطباء العصـــور الوســـطى قاطـــبة، بل وحجة الطب فى العالم منذ زمانه وحتى العصور الحديثة، نجده يتعدى هذه الحدود الأخلاقية الأبقراطية حيث رآها قاصـــرة وبفكر كأول طبيب فى معالجة المرضى الذين لا أمل فى شفائهم، فكـــان بذلك رائداً فى هذا المجال. لقد رأى الرازى أن الواجب يحتم على الطبيب ألا يترك هؤلاء المرضى، وأن عليه أن يسعى دوماً إلى بث روح الأمل فى نفس المريض، ويوهمه أبداً بالصحة ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس.

ومن أشهر الأمراض التى اعتبرها سابقوه مستحيلة البرء، وعالجها الـــرازى، الأمراض النفسية والعقلية والعصبية، وكما فعل الرازى بالنسبة للأمـــراض العضوية من تقديم وصف مفصل للمرض يشرح فيه علاماته، وأعراضـــه، ثم يصف له العلاج المناسب، فإنه قد فعل نفس الشئ بالنسبة لهـــذه الأمـــراض. ومن الأمثلة على ذلك قوله: "الغم الشديد الدائم الذى لا يعرف له سبب، وخبث النفس، وسوء الرجاء ينذر بالماليخوليا" ثم نراه يقدم وصـــفاً بلـــيغاً لهـــذا المـــرض فـــيقول: "ومن العلامات الدالة على ابتداء

---

(1) انظـــر مقـــالى، فى المخطوطات العربية.. علوم إبداعية (مهملة).. علم النفس (محاولة تأصيلية) المنشور بجريدة الأهرام بتاريخ 7 مايو 2004.

الماليخولـــيا: حب التفرد والتخلى عن الناس على غير وجه حاجة معروفة أو علة كما يعرض للأصحاء لحبهم البحث والستر للأمر الذى يجب ستره. وينـــبغى أن يبادر بعلاجه لأنه فى ابتدائه أسهل ما يكون، ويعسر ما يكون إذا اســـتحكم، وأول مـــا يستدل على وقوع الإنسان فى الماليخوليا، هو أن يسرع إلى الغضب والحزن والفزع بأكثر من العادة ويحب التفرد والتخلى، فـــإن كان مع هذه الأشياء بالصورة التى أصف، فليقوظنك، ويكن لا يفتح عينيه قليلاً، وشفاهم غليظة، وصدورهم وما يليها عظيم، وما دون ذلك من البطـــن ضـــامر، وحركـــتهم قويـــة سريعة لا يقدرون على التمهل، دقاق الأصـــوات، ألسنتهم سريعة الحركة بالكلام، ولا يظهر فى كل هؤلاء قئ وإســـهال معه كيموس أسود، بل ربما كان الأكثر الظاهر منهم البلغم، فإن ظهـــر فـــى الاستفراغ، شئ أسود، دل على غلبة ذلك وكثرته فى أبدانهم، وخـــف منهم مرضهم قليلاً". وينصح الرازى أصحاب هذا المرض بالسفر والانـــتقال إلـــى بلـــد آخر مغاير لبلدهم فى المناخ فقد برأ خلق كثير من الماليخوليا بطول السفر على حد قول الرازى[1].

وللـــرازى معالجات نفسية كثيرة توضح بصورة جليّة أنه قد أدرك أثـــر العامل النفسى فى صحة المريض. وليس هذا فحسب بل وفى إحداث الأمراض العضوية. وبذلك يكون الرازى قد تنبه إلى ما يسمى فى العصر الحديث بالأمراض النفسجسيمية Psychomatic diseases وهى موضوع اهتمام أحداث فروع الطب.

---

(1) انظـــر مقالى، صفحات مشرقة من التاريخ العربى: أصالة الطب النفسى، المنشور بمجلة العربى الكويتية، عدد نوفمبر 2004.

وهـــناك أطباء كثيرين غير الرازى كل أدلى بدلوه فى هذا الميدان مـــثل جبرائـــيل بـــن بختيشوع، وعلى بن رضوان المصرى، وأبو القاسم الزهـــراوى، ورشيد الدين أبو حليقة، وسكرة الحلبى، والشيخ الرئيس ابن سينا.. وغيرهم.

فممـــا وصل إلينا عن جبرائيل بن يختيشوع – كمثال – هذه الحالة الـــتى ســـجلها ابن أبى أصيبعة، حيث ذكر أنه كان لهارون الرشيد جارية رفعـــت يدهـــا فبقيـــت هكذا لا يمكنها ردها. والأطباء يعالجونها بالتمريخ والادهـــان، ولا يـــنفع ذلك شيئاً، فاستدعى جبرائيل بن بختشيوع، فقال له الرشـــيد: أى شـــئ تعـــرف عن الطب؟ فقال: أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيبس الرطب الخارج عن الطبع. فضحك الخليفة وقال: هـــذا غاية ما يحتاج إليه فى صناعة الطب، ثم شرح له حال الصبية، فقال لـــه جبرائيل: إن لم يسخط علىّ أمير المؤمنين فلها عندى حيلة، فقال له: ومـــا هـــى؟ قال: تخرج الجارية هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده، وتمهـــل على ولا تعجل بالسخط، فأمر الرشيد بإحضار الجارية-فخرجت. وحيـــن رآهـــا جبرائـــيل عاد إليها ونكس رأسه ومسك ذيلها كأنه يريد أن يكشـــفها، فانزعجـــت الجاريـــة، ومـــن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها، وبسطت يدها إلى أسفل ومسكت ذيلها. فقال جبرائيل: قد برئت يـــا أمير المؤمنين، فقال الرشيد للجارية: أبسطى يدك يمنة ويسرة، ففعلت ذلك، وعجب الرشيد وكل من كان بين يديه.

يفســـر علـــم النفس الحديث حالة هذه الفتاة على أنها حالة "فصام" Schizophrenia مـــن نـــوع يسمى "الفصام التشنجى" "Catatonia" أو الفصـــام التصلبى Catatonic الذى يتميز سلوك صاحبه بالتيبس النفسى

والجسمى[1] حيث يجلس المريض ساعات طويلة جامد لا يتحرك وإذا رفع يـــده أو ذراعـــه فإنه يبقيه لمدة طويلة كما لو كان منفصلاً عن جسمه لذا تعتـــبر هـــذه الحالة إحدى الاضطرابات الحركية ذات الأعراض التكوينية والنفســـية، وربما تنتج عن الاستثارة المستمرة الداخلية منطقة غير محددة بالمخ حيث يزداد نشاط "الجاما أمينو بيوتريك أسيد" "GABA Gamma amino butyric acid".

ويلاحـــظ أن "جبرائيل" قد استخدم ما يعرف حالياً بالعلاج السلوكى Behavior therapy الذى يهتم فى أبسط حالاته بعلاج العرض الملاحظ. ويعـــتمد العلاج السلوكى الحديث على أبحاث ونظريات بافلوف Pavlov أحـــد رواد المدرسة السلوكية التى تعنى بتفسير السلوك الإنسانى كاستجابة لمثـــير خـــارجى دون إعطـــاء أهمية للعوامل الداخلية للفرد بالإضافة إلى إســـهامات B.F.SK.nner سكنر فى هذه النظرية. حيث استخدم جبرائيل الفعل المنعكس Reflex action الذى لا يصدر عن المخ وإنما يصدر عن الـــنخاع الشوكى وبالتالى لا يخضع للتفكير الرمزى. فتصلب يد الفتاة فعل قسرى تعجز عن تغييره بطرق الإقناع العادية، ولذلك فلابد وأن يتم علاجه بظـــروف تعجز الفتاة عن عدم الاستجابة لها، أى بفعل لا إرادى، وهذا ما فعله جبرائيل تماما.

أما الشيخ الرئيس ابن سينا فقد عنى بعلم النفس عناية كبيرة، حيث ألـــم بمســـائله المختلفة إلماماً واسعاً، واستقصى مشاكله وتعمق فى أكثرها تعمقـــاً كبـــيراً. ومن إضافاته الأصيلة فى مجال علم النفس باعتراف عالم

---

(1) انظـــر مقـــالى، التأصـــيل النفسى لعلم النفس، المنشور بجريدة الأهرام بتاريخ 14 مايو 2004.

النفس الأمريكى هليجارد أنه قد تعرف على ما يعرف اليوم باسم الأمراض الوظيفية Function Illnesses فى مقابل الأمراض العضوية Organic Illnesses والأمـراض الوظيفـيـة هـى أمراض نفسية الأسباب والنشأة Psychorgenesis، وتصيب وظيفة العضو ذاته كالتفكير بالنسبة للدماغ. ومـنها الأزمـات والكوارث والصدمات النفسية وخبرات الفشل والإحباط والحرمان والقسوة والخضوع لحالات من الضغط النفسى والاجتماعى.

ومـن الجدير بالاعتبار أن واحداً من أكبر علماء النفس الأمريكيين المعاصـرين، هـو جـيمس كولمان James C. coleman يضمن كتابه "Abnormal Psychology and modern life" حالـة مرضية نفسية عالجهـا ابن سينا بطريقة مبتكرة أفادت علم النفس الحديث. يقول كولمان: أصـيب أحـد الأمراء بالمالنخوليا، وظهرت من أعراضها عليه أن تخيل نفسـه "بقـرة" يجـب أن تذبح ويتغذى الناس من لحمها اللذيذ. وكان هذا المـريض يخـرج صـوت كصوت البقرة (الخوار)، ويصيح: اذبحونى.. اذبحونى، ولذا امتنع عن الطعام، الأمر الذى أدى إلى ضعفه وهزاله. ولما تم إقناع ابن سينا بعلاج هذا الأمير، بدأ علاجه بأن أرسل إليه رسالة يبلغه فـيها بأنه ينبغى أن يكون فى حالة نفسية جيدة، حيث سيقدم الجزار قريباً لذبحـه، ففـرح المريض بهذه الرسالة، وهيأ نفسه – نفسياً – للذبح. وبعد، فـترة دخل إليه ابن سينا غرفته شاهراً سكيناً كبيراً، وقال: "أين هذه البقرة التى سوف أذبحها" فأجابه المريض بإصدار خوار البقرة كى يعرفه، فأمر ابـن سـينا بأن يطرح أرضاً، وتقيد أيديه وأرجله، وبعد إتمام هذا الأمر، تحسـس ابـن سينا كل جسمه، ثم قال: إنها بقرة نحيفة جداً لا تصلح للذبح الآن، يجب أن تتغذى وتسمن أولاً، ثم أمرهم بإطعام المريض بأطعمة جيدة

ومناسبة، فاكتسب المريض حيوية وقوة، الأمر الذى جعله يتحرر مما اعتراه من أعراض وهذاءات، وتم له الشفاء التام.

تكشف معالجة هذه الحالة عن أن ابن سينا قد شخصها تشخيصاً سليماً بأنها حالة مالنخوليا Melancholia بأعراضها المعروفة. كما أدرك معنى مصطلح الهذاء أو الضلالة Delusion أحد الأعراض المميزة للذهان العقلى Psychosis أو المرض العقلى المرادف للجنون. والمنهج الذى استخدمه ابن سينا فى علاج هذه الحالة ومثيلتها هو نفسه المنهج المتبع فى العلاج النفسى الحديث، وبذلك يكون لابن سينا السبق فى هذا المجال.

ومن نوادر الطبيب أوحد الزمان البلدى: أن مريضاً ببغداد كان يعتقد أن على رأسه دنا، وأنه لا يفارقه أبداً. فكان كلما مشى يتحايد المواضع التى أسقفها قصيرة ويمشى برفق ولا يترك أحداً يدنو منه، حتى لا يميل الدن أو يقع عن رأسه. وبقى بهذا المرض وهو فى شدة منه. وعالجه جماعة من الأطباء ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به. وأنهى أمره إلى أوحد الزمان ففكر أنه ما بقى شئ يمكن أن يبرأ إلا بالأمور الوهمية، فقال لأهله: إذا كنت فى الدار فأتونى به ثم أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل إليه وشرع فى الكلام معه، وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما، أن يسرع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد الدن الذى يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاماً آخر، وكان قد أعد معه دنا فى أعلى السطح، أنه إذا رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب المالنخوليا أن يرمى الدن الذى عنده بسرعة إلى الأرض. ولما كان أوحد الزمان فى داره، وأتاه المريض شرع فى الكلام معه

وحادثه، وأنكر عليه حمله للدن، وأشار إلى الغلام الذى عنده من غير علم المريض فأقبل إليه، وقال والله لابد لى أن أكسر الدن وأريحك منه. ثم أدار تلك الخشبة التى معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى الغـلام الآخر الدن من أعلى السطح، فكانت له جلبة عظيمة، وتكسر قطعاً كثـيرة، فلما عاين المريض ما فعل به، رأى الدن المنكسر، تأوه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه الذى كان على رأسه بزعمه، وأثر فيه الوهم أثراً برأ من علته تلك.

فى علم النفس الحديث تفسر حالة مريض بغداد هذه على أنها حالة أعـراض هـلاوس "Halluacination" (يلاحـظ هـنا تأثر المصطلح الإنجلـيزى للهلاوس بالتسمية العربية. ومن هذا القبيل أيضاً: Hysteria هيسـتريا. Hysteric هيسـترى. Malancholia مالنخولـيا) وهى من الأعراض الشائعة لدى الذهانيين والنادرة بين العصابيين. وتعرف الهلاوس علـى أنها مدركات حسية خاطئة لأنها لا تنشأ عن موضوعات واقعية فى العـالم الخـارجى بـل عن وضوح الخيالات والصور الذهنية ونصوعها نصـوعاً شديداً بحيث يستجيب لها المريض كوقائع بالفعل وقد تكون هذه الهـلاوس بصـرية سمعية أو ذوقية أو حتى شمية. وهى فى حالتنا هذه، هلاوس بصرية[1].

وقد استخدم "أوحد الزمان" فى علاجه لهذه الحالة ما يعرف بالعلاج بالإيحاء وهى طريقة لعلاج أعراض المرض تساعد على تحرير المريض من اعتقاده الفاسد.

---

(1) انظر مقالى، علم النفس فى التراث العربى، المنشور بجريدة الأهرام بتاريخ 6 أغسطس 2004.

ولقد أدرك الطب العربى الإسلامى آثار الحالة النفسية للإنسان، فى وظائف أجهزة الجسم المختلفة، فالحالة النفسية فى الانقباض والفرح والهم والغم والخجل، تؤثر تأثيراً مباشراً فى سلوك الإنسان، وقد تؤدى إلى الجنون وفقدان العقل، والأمراض النفسية الشديدة التى يحتاج علاجها إلى بحث دقيق وعميق، وهذا ما فعله الأطباء العرب المسلمون وطبقوه بالفعل فى أقسام الأمراض العقلية فى البيمارستانات (المستشفيات) حيث فطن العرب المسلمون إلى ضرورة تخصيص أماكن خاصة لمعالجة أصحاب الأمراض العقلية، فكان يخصص لها قسم فى كل بيمارستان، يتلقى فيه المريض عناية خاصة من أطباء حاذقين ومهرة فى فنون العلاج النفسى.

وقد وصل الاهتمام بهؤلاء المرضى حداً إلى الدرجة التى معها كانت أقسامهم فى بيمارستانات بغداد ودمشق، والقاهرة، وقرطبة تفرش بفرش من القطن فى ردهات يتوفر فيها الهدوء والهواء الطلق والنور، وعليهم مشرفون يتعهدونهم بالأشربة المسكنة والمرطبة، ويغذونهم بمرق الدجاج وأنواع الألبان، بينما الموسيقى تصدح خلفهم بألحان شجية، وفى بعض البيمارستانات مثل بيمارستان حلب خص المريض بخادمين ينزعان عنه ثيابه كل صباح، ويحممانه بالماء البارد، ويلبسانه أنظف الثياب، ويحملانه على أداء الصلاة، ويسمعانه قراءة القرآن – **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** – ويخرجان به إلى الهواء الطلق.

يتبين من كل ما سبق أن أسس ومبادئ علم النفس – كعلم حديث نسبياً – موجودة على حد زعمى – فى مؤلفات وكتابات بعض علماء الحضارة العربية الإسلامية، وأطباءها. لكن معظم هذه المؤلفات لازال فى صورته المخطوطة. وبناءً على ما قدمته، فإن مثل هذه المخطوطات

تســتحق منا أن ننفض عنها غبار السنين بالفهم والدراسة والتحقيق، لعلنا نكشــف عمــا تحــتويه من كنوز مازالت فاعلة حتى اليوم، ومنها الطب النفســى، أو علم النفس العربى الإسلامى، والذى قدمت له بعض الشواهد والمؤيدات التى تشير إلى أنه علم عربى إسلامى أصيل.

7- وأخــيراً وعلــى أقل تقدير تبرز هذه العلمية المقترحة القيمة المعرفــية للمخطــوط موضوع الفهم والاستيعاب والتحليل والنشر، فتسد فجوة، أو تكمُل حلقة من حلقات سلسلة تاريخ العلم، موضوع اهتمام العالم المتقدم حالياً.

ويُعد كل ما سبق قليل من كثير ناتج من عملية **(فهم)** المخطوطات التى أنادى بها... فهلا استمعنا؟!

ويشتمل كتابى هذا على ثلاثة كتب لحجة الإسلام، الإمام أبو حامد الغــزالى، تكاد تكون مجهولة، وتُنشر - حسب علمى - لأول مرة. وقد طبقــت علــيها مــنهجى الجديــد المشار إليه فى المقدمة، فقمت بتحليل، وتلخــيص، وتنقية، وفهم، واستيعاب نصوص الكتب الثلاثة، وذلك بغرض "تبصــير" القــراء والمتخصصــين، بهذه الكتب التى ما زالت مخطوطة، ومجهولــة، مع إنها ذات قيمة علمية وروحية كبيرة، ولاسيما إذا علمنا أن مــن بينها كتاب منهاج العابدين، وهو آخر ما كتبه الغزالى صاحب "إحياء علوم الدين".

فقــد جاء إخراج هذه الكتب عن اقتناع كامل بأن قيمتها تتناسب بلا شك مع حجم "الغزالى" على مستوى العالم.

- 1 -

كتاب الكشف والتبيين

في

غرور الخلق أجمعين

"تحليل وفهم وتبصير"

أولاً: نماذج المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الشيخ الإمام العالم الفاضل حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي
الطوسي رحمه الله تعالى وعفى عنه الحمد لله وحده والصلاة والسلام على خير خلقه
سيدنا محمد وآله وصحبه هذا كتاب الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين اعلم
أن الخلق قسمان حيوان وغير حيوان والحيوان قسمان مكلف ومهمل فالمكلف طالبه
بالعبادة وأمره بها ووعده الثواب عليها ونهاه عن المعاصي وحذره العقوبة
ثم المكلف قسمان مؤمن وكافر والمؤمن قسمان طائع وعاص وكل من الطائع
والعاصي ينقسم قسمين عالم وجاهل ثم رأيت الغرور لازما لجميع المؤمنين إلا
والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين وأنا أريد أن أكشف عن غرورهم وأبين
الحق فيه وأوضحه غاية الإيضاح وأبينه غاية البيان بأوجز ما يكون من العبارة
وأبدع ما يكون من الإشارة وأنا أورد من الخلق ما عدا الكافرين أربعة أصناف
صنف من العلماء وصنف من العباد وصنف من أرباب الأموال وصنف من المتصوفة
فأول ما نبدأ به غرور الكافر وهو قسمان منهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من
غره بالله الغرور أما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسيئة
ولأن الدنيا يقين والآخرة شك ولا نترك اليقين بالشك وهذا قياس
فاسد وهو قياس إبليس لعنه الله تعالى في قوله أنا خير منه فظن أن الخير
في النسبة وعلاج هذا الغرور شيئان إما بتصديق وهو الإيمان وإما
ببرهان أما التصديق فهو أن تصدق الله تعالى في قوله وما عند الله خير وأبقى
وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور وتصدق الرسول فيما جاء به وأما البرهان وهو
أن يعرف وجه فساد قياسه فإن قوله الدنيا نقد والآخرة نسيئة مقدمة صحيحة
وأما قوله النقد خير من النسيئة فهو محل التلبيس فليس الأمر كذلك بل إن كان النقد
مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منه فالنسيئة خير منه ومعلوم أن
الآخرة أبدية والدنيا غير أبدية وأما قوله الدنيا يقين والآخرة شك فهو أيضا باطل

فذلك

فلذلك يتفق عند المؤمنين وليقينيتهم مدركان احدهما الايمان والتصديق على
وجه التقليد للانبياء والعلماء كما تقلد الطبيب الحاذق في الدواء والمدرك الثاني
الوحي للانبياء والالهام للاولياء ولا تظنن ان معرفة النبي صلى الله عليه وسلم الامور
الاخرة ولامور الدنيا تقليد لجبريل عليه السلام فان التقليد ليس بمعرفة صحيحة
والنبي صلى الله عليه وسلم حاشاه من ذلك بل قد انكشفت له الاشياء وشاهدها
بنور البصيرة كما تشاهد انت المحسوسات بالعين الباصرة ويفض

والمؤمنون بالسنتهم وعقائدهم اذا ضيعوا امر الله تعالى وهجروا الاعمال الصالحة وتبعوا
الشهوات فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور في الحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعا
فاما غرور الكافرين بالله تعالى فمثاله قول بعضهم في انفسهم وبالسنتهم انه ان
كان لله معاد فنحن احق به من غيرنا كما اخبر الله تعالى عنهم في سورة الكهف
حين قال وما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة الاية وسبب
هذا الغرور قياس من اقيسة ابليس لعنه الله تعالى وذلك انهم ينظرون مرة
الى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعم الاخرة ومرة الى تاخير
عذاب الله عنهم في الدنيا فيقيسون عليها عذاب الاخرة كما اخبر الله تعالى
عنهم ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول الاية ومرة ينظرون الى
المؤمنين وهم فقراء فيزدرونهم ويقولون اهؤلاء من الله عليهم من بيننا ويقولون
لو كان خيرا ما سبقونا اليه وترتيب القياس الذي نظم في قلوبهم انهم يقولون
قد احسن الله الينا بنعيم الدنيا وهو محب وكل محب محسن فلابد ان يكون محسنا
ولا يكون محبا لربه يكون احسن لسبب الهلاك على الانسان زاج وذلك محض
الغرور بالله عز وجل ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى يحمي عبده
من الدنيا كما يحمي احدكم مريضه عن الطعام والشراب وهو يحبه ولذلك كان
ارباب البصائر اذا اقبلت عليهم الدنيا حزنوا واذا اقبل عليهم الفقر قالوا
مرحبا بشعار الصالحين وقد قال تعالى فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه

وتمام الاية وقال تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملي لهم ان كيدي
متين وقال تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا
فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فمن امن بالله تعالى لم يامن
من هذا الغرور ومنشا هذا الغرور الجهل بالله تعالى وبصفاته فان من عرف
الله تعالى فلا يامن من مكر الله تعالى افلا ينظر الى فرعون وهامان ونمرود
وما حل بهم مع ان الله تعالى اعطاهم من المال وقد حذر الله تعالى مكره فقال
تعالى فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون وقال تعالى ومكروا ومكر الله والله
خير الماكرين وقال تعالى فمهل الكافرين امهلهم رويدا فمن اولي نعمة بجد [illegible]
نعمة [illegible] واما غرور العصاة بالله من المؤمنين فقولهم غفور رحيم
وانا نرجو عفوه فاتكلوا على ذلك واهملوا الاعمال وذلك من قبيل الرجاء فانه مقام محمود
في الدنيا وان رحمة الله واسعة ونعمته شاملة وكرمه عميم وانا موحدون
نرجوه بوسيلة الايمان والكرم والاحسان وربما كان منشا غرورهم التمسك بصلاح
الاباء والامهات وذلك نهاية الغرور فان اباهم مع صلاحهم وورعهم كانوا لغاية
ونظم قياسهم الذي يسوق لهم الشيطان ان من احب انسانا احب اولاده فان الله
قد احب اباكم فهو يحبكم فلا تحتاجون الى الطاعات فاتكلوا على ذلك واغتروا بالله ولم
يعلموا ان نوحا عليه السلام اراد ان يحمل ولده في السفينة فمنع واغرقه الله سبحانه
وتعالى باشد ما اغرق به قوم نوح وان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم طلب زيارة
قبر امه وفي الاستغفار فاذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار ونسوا قوله سبحانه
وتعالى لا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ما سعى ومن ظن انه ينجو بتقوى
ابيه كمن ظن انه يشبع باكل ابيه او يروى بشراب ابيه والتقوى فرض عين لا يجزي والد
عن ولده يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه الا على سبيل الشفاعة
ونسوا قوله عليه الصلاة والسلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق
من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني وقوله ان الذين امنوا والذين هاجروا
وجاهدوا [illegible]

وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم وقال تعالى جزاء
بما كانوا يعملون وهل يصلح الرجاء الا بتقدمه عمل والا فهو غرور لا رجاء

فصل ويقرب منهم طوائف لهم طاعات ومعاصي الا ان معاصيهم اكثر وهم
يتوقعون المغفرة ويظنون ان كفة حسناتهم ترجح اكثر من كفة السيئات وهذا
غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما
يتناوله من اموال الناس والشبهات اضعافه وهو كمن وضع في كفة الميزان عشرة
دراهم ووضع في الكفة الاخرى الفا واراد ان تميل الكفة التي فيها العشرة وذلك
غاية الجهل

فصل ومنهم من يظن ان طاعته اكثر من معاصيه واذا عمل
طاعة حفظها واعتد بها كالذي يستغفر بلسانه ويسبح في الليل والنهار مثلا
مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يرضي الله طول النهار ويلتفت الى ما ورد في
فضل التسبيح ويغفل عما ورد في عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين من المنافقين
وذلك محض الغرور لحفظ لسانه عن المعاصي آكد من تسبيحاته

فصل في بيان ذوي
اصناف المغرورين واقسام كل صنف الصنف الاول من المغرورين العلماء والمغتر
منهم فرق فرقة منهم احكموا العلوم الشرعية والعقلية تعمقوا فيها واشتغلوا بها
واهملوا تفقد الجوارح وحفظها من المعاصي والزامها الطاعة واغتروا بعلمهم وظنوا
انهم عند الله بمكان وانهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله تعالى مثلهم بل يقبل
علمهم ويشفعون في الخلق شفاعتهم ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم وهم مغرورون
فانهم لو نظروا بعين البصيرة علموا ان العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم
بالله تعالى وبصفاته ولا بد في علم المعاملة لتتم الحكمة المقصودة وهو العلم بمعرفة
الحلال والحرام ومعرفة اخلاق النفس المذمومة والمحمودة ومثالهم مثال طبيب
طب غيره وهو عليل قادر على طب نفسه ولم يفعل وهل ينفع الدواء بالوصف هيهات
لا ينفع الدواء الا من شربه بعد الحمية وغفلوا عن قوله تعالى قد افلح من زكاها وقد
خاب من دساها ولم يقل قد افلح من تعلم تزكيتها وكتب علمها وعلمها الناس وغفلوا عن قوله

وهم يظهرون ان غرضهم الخدمة والتبعية ثم انهم يجمعون من الحرام والشبهات لينفقوا عليهم
لتكثر اتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم وبعضهم ياخذ من اموال السلطان لينفق عليهم
وبعضهم من ياخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم ان غرضه البر والانفاق وباعث
جميعهم الريا والسمعة وذلك اهمالهم لجميع اوامر الله تعالى ظاهرا وباطنا ورضاهم باخذ الحرام والانفاق
منه ومثال ذلك الذي ينفق مال الحرام في طريق الحاج كمن يعمر مسجد الله تعالى ويطينه بالعذرة
ويزعم ان قصده العمارة وفرقة اخرى اشتغلت بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتطهير
النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة
خدعها علما وحرفة لهم فهم في جميع احوالهم يشتغلون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط
دقيق الكلام في افاتها فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ويشغفون
فيه بكلمات مسلسلة وضيعوا في ذلك اوقاتهم فكانهم وتفقدوا مع انفسهم ولم يشتغلوا بجملتهم
ومثالهم مثال من اشتغل باوقات الحج وعوائقه ولم يسلك طريق الحج وذلك لم يغن عنه في
الحج وفرقة اخرى جاوزت هذه المرتبة وابتدوا سلوك الطريق وانفتحت لهم ابواب
المعرفة فلما تشمموا من مبادي المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها واعجبهم غرابتها
فتعلقت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم
وانسدادها على غيرهم وكل ذلك غرور لان عجايب طريق الله تعالى ليس لها نهاية
فمن وقف مع كل اعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول الى المقصد ومثاله
مثال من قصد على ملك فراى باب ميدانه روضة فيها ازهار وانوار ولم يكن قد راها قبل
ذلك ولا راى مثلها فوقف ينظر اليها حتى فاته الوقت الذي يمكنه اللقا بالملك
فانصرف خايبا وفرقة اخرى جاوزت هولا ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار
في الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يلتفتوا اليها ولا عرجوا عليها
بل ساروا جادين في السير فلما قاربوا الوصول ظنوا انهم وصلوا فوقفوا ولم يتعدوا
بتعديه وغلطوا فان الله تعالى له سبعون حجابا من نور وظلمة لا يصل السالك
الى حجاب من تلك الحجب الا ويظن انه قد وصل واليه الاشارة بقوله تعالى اخبارا عن

ابراهيم

ابراهيم عليه افضل الصلاة والسلام اذ قال فلما جن عليه الليل راى كوكبا
الآية وما اكثر في هذا المقام فاول حجاب بين العبد وربه نفسه فانه امر رباني
عظيم وهو نور من انوار الله تعالى اعني سر القلب الذي سيتجلى حقيقة
الخفي كما هي حتى انه ليسع جملة العالم كله ويحيط بصور الورى فعند ذلك
يشرق نوره اشراقا عظيما اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه
وهو في اول الامر محجوب بمشكاة هي الساترة له فاذا تجلى نوره وانكشف
جمال القلب بعد اشراق نور الله تعالى عليه ربما التفت صاحب القلب الى
القلب فراى من جماله الفائق ما يدهشه فربما صرخ وقال انا الحق فان لم
ينفتح له ما وراء ذلك ووقف عنده هلك ولهذا غلط نظر النصارى الى
المسيح عليه الصلاة والسلام لما راوا من اشراق نور الله تعالى عليه
فغلطوا كمن راى كوكبا في مرآة او في ماء فيظن ان الكوكب في المرآة او في
الماء فيمد يده ليأخذه فهو مغرور وانواع الغرور في طريق السلوك الى
الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى الا بعد شرح جميع العلوم الخفية
وذلك مما لا رخصة في ذكره وقد يجوز اظهارها حتى لا ينفع المغرور فيها
وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم تمت بحمد الله
وعونه وحسن
توفيقه

ثانياً: مضمون ومفهوم الكتاب

يُقَسّم الإمام الغزالي الخلق إلى قِسْمَيْن : حيوان، وغير حيوان، والحيوان ينقسم إلى قسمين: مكلف، ومهمل، فالمكلف خاطبه بالعبادة، وأمره بها، ووعده الثواب عليها، ونهاه عن المعاصي وحَذّرَهُ العقوبة، كما أن المكلف قِسْمَان: مؤمن، وكافر.

والمؤمن قِسْمَان: طَائعٌ، وعاص. وكل من الطائعين والعاصين قسمين: عالم، وجاهل، ثم يري أن الغرور لازما لجميع المؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين.

والمغرورون من الخَلْقِ ما عدا الكافرين، أربعة أصناف:

1- صنف من العُلَمَاء. 2- صنف من العُبَّاد.

3- صنف من أرباب الأَمْوَال. 4- صنف من المُتَصَوِّفة.

فأَمَّا غرور الكافر فقسمان: 1- منهم من غَرَّتْهُم الحياة الدنيا، 2- ومنهم من غَرَّهم بالله الغَرور. وعلاج هذا الغرور شيئان: إما بتصديق وهو الإيمان، وإمَّا بِبَرْهَانٍ، أما التصديق، فهو أن تصدق الله تعالي في قوله **﴿وما عند الله خير وأبقى وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾** وتُصدق الرسول فيما جَاءَ به.

وأمّا البرهان فهو أن تعرف وجه فَسَاد قياسه، ومعلوم أن الآخرة أبدية والدنيا غير أبدية، وأمّا القول بأن الدنيا يقين، والآخرة شك، فهو باطل، يقف عنه المؤمنون، وليقينيته مدركان: أحدهما: الإيمان والتصديق على وجه التقليد للأنبياء والعلماء، كما يُقَلّد الطبيب الحاذق في الدواء. والمدرك الثاني: الوحي للأنبياء، والإلهام للأولياء.

ولا تَظن أنّ مَعَرِفَة النبي ﷺ لأمور الآخرة، ولأمور الدنيا تقليداً لجبريل (عليه السلام)، فإن التقليد لَيْسَ بمعرفة صحيحة، والنبي ﷺ حاشاه

مــن ذلــك، بــل قد انكشفــت لـــه الأشياء، وشاهدها بنور البصيرة، كما شاهدت أنت المحسوسات بالعين الباصرة.

والمؤمنون بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيَّعوا أمر الله تعالى، وهي الأعمال الصالحة وتدنسوا بالشهوات فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور، فالحياة الدنــيا للكافرين والمؤمنين جميعاً. فَأَمَّا غرور الكافرين بالله تعالى، فمثاله قول بعضهم في أنفسهم بألسنتهم: إنه إن كان الله يُعْيُدنا، فنحن أَحَقُّ به من غيرنا، كما أخبر الله عنهم في سورة الكهف حين قال: "ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة". وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله تعـــالى، أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله تعالى عليهم فى الدنيا، فيقسون علـــيها نعـــم الآخرة، ومرة إلى تأخير عذاب الله عنهم فى الدنيا، فيقسون عليها عذاب الآخرة، كما أخبر الله تعالى عنهم: **﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾** الآية.

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء، فيزدرونهم ويقولون: **﴿أهؤلاء مَـــنَّ الله علـــيهم مـــن بينـــنا﴾** ويقولون: **﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾** وترتيـــب القياس الذي نظم في قلوبهم أنهم يقولون: قد أَحْسَنَ الله إلينا بنعم الدنـــيا وهو محب، وكل مُحِبٌ مُحْسِن، لا بل يكون محسناً ولا يكون مُحبًّا، بل رُبَّما يكون أحسن لسبب الهلاك على الاستدراج، وذلك محض الغرور بالله عز وجل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:**﴿إن الله تعالي يحمي عبده مـــن الدنـــيا، كما يحمي أحدكم مريضه عن الطعام والشّراب وهو محبه﴾** ولذلـــك كان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا، وإذا أقبل عليهم الفقـــر فـــرحوا، وقـــالوا: مرحباً بشعار الصالحين، فقد قال تعالى: **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه رَبَّه فأكرمه ونَعَّمَه﴾** الآية..

وقال تعالي: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم إن كيدي متيــن﴾، وقــال تعالـــي: ﴿فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شـــيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بَغْتَة، فإذا هم مبلسون ﴾ فمن آمـــن بـــالله تعالى لم يأمن من هذا الغرور، ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله تعالـــي وبصفاته، فإن من عرف الله تعالي، فلا يَأْمَن من مكره تعالي، أفلا ينظرون إلى فرعون وهَامان وثمود، وماذا حَلَّ بهم مع أن الله أعطاهم من المال، وقد حذّر الله تعالي مكره، فقال تعالي: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾، وقال تعالي: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ وقال تعالـــي: ﴿فَمَهِّـــل الكافرين أمْهلهم رويدا﴾ فمن أُولي نعمة يحذر أن تكون نقمة.

وأمَّا غرور العصاة بالله من المؤمنين، فقولهم غفور رحيم وإنا نرجو عفـــوه فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال، وذلك من قِبَلِ الرجاء، ومَنْ ظَنَّ أنه ينجو بتقوى أهله، كمن ظَنَّ أنه يشبع بأكْلِ أبيه، أو يروي بشراب أبيه، والتقوى فرض عين.

لا يجـــزي والـــد عـــن ولـــده، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ من أخيه، وأُمِّه وأبيه، وصاحبته وبنيه إلا على سبيل الشفاعة، ونسوا قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿الكَـــيِّس مَنْ دَان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هَوَاهَـــا، وتمـــنى على الله الأماني﴾، وقوله جلّ وعلى: ﴿إن الذين آمنوا والذيـــن هاجـــروا وجاهدوا في سبيل الله، أولئك يرجون رحمة الله، والله غفـــور رحـــيم﴾، وقولـــه تعالي: ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾ وهل يصلح الرجاء إلا أن يتقدمه عمل، وإلا فهو غرور لا محالة.

ويَقْرُب منهم طوائف لهم طاعات ومعاصي إلا أن معاصيهم أكثر وَهُم يـتوقعون المغفرة ويظنون أن كَفَّة حسناتهم تُرجَح أكثر من كَفَّة السيئات، وهـذا غايـة الجهـل، فـتري الواحد يَتَصَدَّق بِدَرَاهم معدودة من الحَلال والحرام، ويكون ما يتناوله من أموال الناس، والشبهات أضعافه، وهو كَمَنْ وَضَع في كَفَّة الميزان عشرة دراهم، ووضع في الكفة الأخرى ألفاً، وأراد أن تميل الكَفَّة التي فيها العشرة، وذلك نهاية الجهل.

ومنهم مَنْ يَظَن أن طاعته أكثر من مَعَاصِيه، وإذا عمل طاعة حفظها واْعَتَد بها كالذي يستغفر بلِسَانه ويُسَبِّح في الليل والنهار مثلاً مائة مرة، ثم يَغْـتَاب المسـلمين، ويتكلم بما لا يُرْضي الله طوال النهار، ويلتفت إلى مَا وَرَد فـي فضـل التسـبيح، ويغفل عَمَّا ورد في عقوبة الكَذَّابين والنَمَّامين والمنافقين، وذلك محض الغرور.

وأمَّـا عن أصناف المَغْرُورين وأقسامهم، فنجد أن الصنف الأول من المغرورين: العلماء، والمغرورون منهم فرق.

فـرقة منهم لما أحكمت العلوم الشرعية والعقلية تعمقوا فيها واشتغلوا بهـا، واهملـوا تفقـد الجوارح وحفظها من المعاصي وإلزامها الطاعات، فاغتروا بعلمهم، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة، علموا أن العلم علمان:

علم معاملة، وعلم مكاشفة: وهو العلم بالله تعالى، وبصفاته، ولا بد من علـم المعاملة، لتتم الحكمة المقصودة، وهي العلم بمعرفة الحلال والحرام، ومعـرفة أخـلاق الناس المذمومة والمحمودة. ومثالهم: مثال طبيب، طب غـيره، وهـو علـيل قـادر على طب نفسه ولم يفعل، وهل ينفع الدواء بالوصف؟ هيهات.

وقـــد غفلـــوا عن قوله سبحانه وتعالي: ﴿قد أفلح مَنْ زكاها وقد خَاب مَنْ دَسَّاها﴾.

وفـــرقة أخـــرى أحكمـــوا العلم والعمل الظاهر، وتركوا المعاصي الظاهـــرة، وغفلـــوا عن قلوبهم، فلم يمحوا منها الصفات المذمومة عند الله كالكبر، والرياء، والحسد وطلب الرئاسة، والعُلا، وإرادة الثناء من الأقران والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، وذلك غرور سببه غفلتهم عن قولــه عليه الصلاة والسلام "**الرياء الشرك الأصغر**"، وقوله: "**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**"، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل**".. إلى غير ذلك من الأخبار، وغفلوا عن قوله تعالي: ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾. فغفلوا عن قلوبهـــم واستغلوا بظواهرهم، ومَنْ لا يصفى قلبه لا تصح طاعته، ويكون كمـــريض ظهر به الجرب، فأُمِرَ بالطلاء وبشرب الدواء، فاشتغل بالطلاء وتـــرك شـــرب الدواء، فأزال امتزاج الظاهر ما بظاهره، وأطلي ما على ظاهـــره بمـــا فـــي باطنه، فلا يزال جربه يزداد به مما في باطنه، فلذلك الخبائث إذا كانت كامنة في القلب يظهر أثرها على الجوارح.

وفرقة أخرى علموا هذه الأخلاق الباطنة، وعلموا أنها مذمومة من وجه الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عـــند الله تعالـــي مـــن أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العَوَام دون من بلغ مـــبلغهم فـــي العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، فظهرت عَلَيْهِم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف وغرورهم أنهم ظنوا أن ذلك لـــيس بكـــبر، وإنما هو عز للدين، واظهار لشرف العِلم، ونصرة لدين الله تعالي.

وفــرقة أخرى أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات، يجتنــبوا ظاهر المعاصي وتفقدوا النفس، وصفات القلب من الرياء والحسد والكــبر، وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها، وقلعوا من القلب منابــتها الجلية القوية، ولكنهم مغرورون إذ بقي في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان، فلم يفطنوا لها وأهملوها ومثلهم كمثل من يريد تنقية الزرع من الحشيش.

وفرقة أخرى تركوا المهم من العُلوم واقتصروا على علوم الفتاوى فــي الحكومــات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعايش، وخصصوا اسم الفقه وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضَيّعوا مَع ذلك علم الأعمال الظاهرة والباطنة، ولم يفقدوا الجوارح، ولم يحرموا اللسان من الغيبة، والبطن من الحرام والرِّجل عن السعي إلى الســلاطين، وكــذا سائر الجوارح، ولم يحرموا قلوبهم عن الكبر والرياء والحَسَــد، وسائر المهلكات، وهؤلاء مغرورون من وجهين: **أحدهمــا**: من حيث العَمل، وقد ذكرت وجوه علاجه في الأحياء "إحياء علوم الدين"، وإن مــثالهم مــثال المريض الذي يعلم الدواء من الحكماء ولم يعمله، وهؤلاء مشرفون على الهلاك من حيث إنهم تركوا تزكية أنفسهم وتحليتها، فاشتغلوا بكــتاب الحــيض والديّات والدعاوى والطهارة واللعان، وضيعوا أعمارهم فيها، وإنما غرَّهم تعظيم الخلق لهم واكرامهم.

والثانــي: مــن حيــث العلم وذلك لظنهم إنه لا علم إلا بذلك وأنه المنجــي الموصــل، وإنما المنجي الموصل حُب الله، ولا يُتَصَوَّر حب الله تعالــي إلا بمعرفــته، ومعرفــته ثلاثة: معرفة الذات، ومعرفة الصفات، ومعــرفة الأفعال، ومثال هؤلاء مثال من اقتصر على بيع الزاد في طريق

الحج. ولم يعلم أن الفقه هو الفقه عن الله تعالي، ومعرفته ومعرفة صفاته المرجوة يستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى كما قال تعالي: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾**.

وفـــرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة والرَّد على المخالفين وتتـــبع مناقضـــاتهم، واستكثروا من علم المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطريق في مناظرة أولئك وإفحامهم، ولكنهم على فرقتين:

الفرقة الأولى مضلة، والأخرى مُحِقَّة.

أمـــا غـــرور الفرقة الضالة؛ فلغفلتها عن ضلالتَها، وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا.. وأما غرور المحقة فمن حيث إنهـــم ظـــنوا بالجدال إنما هم الأمور وأفضل العَربات في دين الله تعالي، وزعموا أنه لا يتم أحد دينه ما لم يفحص ويبحث.

وفـــرقة أخـــرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم فيه من يتكلم في أخلاق الـــنفس وصفات القلب من: الخوف، والرجاء، والصبر، والشكر والتوكل، والـــزهد، واليقيـــن، والإخلاص، والصدق، وهم مغروررون؛ لأنهم يظنون بأنفسهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها أنهم قد اتصفوا بها وهم مـــنفكون عنها، وعن قدر يسير يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهـــم ما يتحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله تعالي، وما قدروا على تحقـــيق دقـــائق الإخلاص ألا وهم مخلصون، ولا وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون.

وفـــرقة أخـــرى منهم عِدلوا عن المنهج الواجب في الوعظ، وهم وعـــاظ أهـــل الـــزمان كافـــة إلا مَنْ عصمه الله تبارك وتعالي بالطاعات والنصـــح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع، والعَدل طلبا للأعزاب،

وتسـجيع الألفـاظ وتلفيقها، وأكثر همتهم في الأسجاع والاشتهار بأشعار الوصـال، والفراق، وغرضهم أن يكثر في مجلسهم الزعاق، والتواجد ولو علـى أغـراض فاسـدة، وهؤلاء شياطين الإنس ضلّوا وأضلوا.. فهؤلاء يصدون عن السبيل، ويزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا لا سـيما إذا كـان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمواكب ويقنطهم من رحمة الله تعالي.

وفرقة أخرى شغلوا بِكَلاَم الزُّهاد وأحاديثهم في ذَمِّ الدنيا فيعيدونها علـى المنابر وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، ويظـن أنه ناج عند الله، وأنه مغفور له بحفظه لكلام الزهاد مع خلوه من العمل وهؤلاء أشد غرورا ممن كان قبلهم.

وفـرقة أخرى شغلوا أوقاتهم في علم الحديث أعني سَمَاعه وجمع الروايات الكثيرة منه، وطلب الأسانيد القريبة العالية، فهمة أحدهم أن يدور فـي البلاد ويروي عن الشيوخ ليقول: "أنا أروي عن فلان، ورأيت فلاناً، وليقيـت فلانـاً، ومعي من الأسانيد مما ليس مع غيري". وغرورهم من وجـوه منها: إنها كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم السنة وتدبر معانيها، وإنما هم قاصرون على النقل ويظنون أن ذلك يكفهم...

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو والشعر، واللغة وغريبها واغتروا به وزعموا أنه غُفِر لهم، وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين والسنة بعلم اللغـة والـنحو فأفنوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، وذلك غرور، فلو عقلـوا لعلموا أن لغة العرب كلغة الترك، والمضيع عمره في لغة العرب كالمضـيع عمـره في لغة الترك والهند، وإنما فارقتهم لورود الشرع بها، فيكفي في اللغة علم اللغة العربية في الحديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق

بالحديث والكتاب، وأما التعمق إلى درجات لا تتناهى فهي فضول مستغنى عنه.

والصنف الثاني من المغرور من أرباب العبادات والأعمال، والمغرورون منه فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الجهاد، ومنهم مَنْ غروره في الزهد، ومنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالقضايا والنوافل.

وفرقة أخرى غلبت عليهم الوسوسة في نِيَّة الصلاة، فلا يدعه الشيطان يعتقد نية صحيحة، بل يُوَسْوس عليه حتى تفوته الجماعة، ويُخرج الصلاة عن الوقت، وإن أتم تكبيرة الإحرام، فيكون في قلبه تردد في صحة نيته، وقد يتوسوس في التكبيرة، فيكون قد تغيرت صفة التكبير لشدة الاحتياط، ويفوته سماع الفاتحة، ويغفلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة، ولا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك. ولم يعلموا أن حضور القلب في الصلاة هو الواجب، وإنما غرهم إبليس وزين لهم، وقال لهم: إن هذا الاحتياط يتميزون به عن العوام.

وفرقة أخرى غلبت عليها الوَسْوسة في إخراج حروف الفاتحة، وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات، والفرق بين الضاد والظاء لا يهمه غير ذلك، ولا يتفكر في أسرار الفاتحة ولا في معانيها، ولم يعلم أنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا ما جرت به عادتهم في الكلام، وهذا غرور عظيم.

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فيهدرونه هدرا، وربما يختمونه في اليوم والليلة ختمات، وألسنتهم تجري به، وقلوبهم تتردد في أودية الآمال، والتفكر في الدنيا، ولا يتفكر في معاني القرآن؛ لينزجر

ويــتعظ بمواعظــه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار منه، ويتلذذ به من حيث المعنى لا من حيث النظم، ومَنْ قرأ كتاب الله في اليوم والليلة مائة مرة، ثم ترك أوامره ونواهيه فهو مستحق للعقوبة.

وفــرقة أخــرى اغــترروا بالصــوم، وربما صاموا الدهر، وصاموا الأيام الشريفة، وهم فيها لا يحفظون أنفسهم من الغيبة، ولا خواطرهم من الرياء، ولا بطونهــم من الحرام عند الإفطار.. وذلك غرور عظيم، وهؤلاء تركوا الواجب واتبعوا المندوب، وظنوا أنهم يسلمون، وهيهات،إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم.

وفــرقة أخرى اغتروا بالحج من غير خروج الزاد الحلال، وربما يضــيعون الصــلاة المكــتوبة في الطريق، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، وهو يطلب الرياء والسمعة.

وفــرقة أخــرى يــنكرون على الناس ويأمروهم بالخير وينسون أنفســهم، وإنما غرض هؤلاء الرياء والسمعة وحب الرئاسة.. وقد ذكرهم الله تعالــي بقولــه: **﴿أتأمــرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾** وفي ذلك يقول الشاعر:

غير تقي يأمر الناس بالتقى ∴ طبيب يداوي والطبيب مريض.

وفــرقة أخــرى جــاوروا بمكة والمدينة، واغتروا بها ولم يراقبوا قلوبهــم، ولــم يُطَهّــروا ظواهرهم، وبواطنهم، وربما كانت قلوبهم متعلقة ببلادهم، وتراهم يتحدثون بذلك، ويقولون جاورنا بمكة كذا وكذا سنة، وهم مغرورون؛ لأن الأقوم لهم أن يكونوا ببلدة وقلوبهم متعلقة بمكة، وإن جاور بالمديــنة حفــظ حــق النبي ﷺ. ومن يقدر على ذلك، وهؤلاء مغرورون بالظواهر.

وفرقة أخرى زهدت في المَال، وقنعت من الطعام واللباس بالدون، ومن المسكن بالمساجد، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع ذلك راغبون في الرئاسة، والجاه، والزهادة، وإنما تُحَصِّل بأحد أشياء، إمَّا بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، فقد تركوا أهون الأمرين، وباءوا بأعظم الهالكين، فإن الجاه أعظم من المال، ولو أُخِذَ المال وترك الجاه كان إلى السلامة أقرب، وغرور هؤلاء بظنهم من الزهاد في الدنيا، ولم يفهموا كيف مُكِرَ بهم، ورُبَّما يقدم الأغنياء على الفقراء. ومنهم من يعجب بعلمه، ومنهم مَنْ يؤثر الخلوة وهو عن شروطها خالٍ، ومنهم مَنْ يعطي المَالَ، فلا يأخذه خِيفَة أن يُقَال بَطُل زهده، وهو راغب في الدنيا خائف من ذم الناس.

ومنهم من شَدَّد على نفسه في أعْمَال الجوارح، حتى يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويختم القرآن، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، وربما يظن أن العبادة الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات وهيهات، ذَرة من ذُرى تقوى وخلق وَاحد من خلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال تملأ بالجوارح، ثم قد يغتر بقول مَنْ يقول له إنك من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبائه، فيفرح بذلك، ويظهر له تزكية نفسه، ولو شوتم يوماً واحداً ثلاث مرات أو مرتين لكَفَّر وجَاهد من فعل ذلك به، وربما قال لمن يسبه لا يغفر الله لك أبدا.

وفرقة أخرى حرصت على النَّوافل ولم يَعظم اعتدادها بالفرائض، فتارة يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، فلا يجد لصلاة الفريضة لذة، ولا خير من الله تعالي لشدة حرصه على المبادرة في

أَوّل الوقـــت، وينســـى قوله ﷺ: ﴿**ما تقرب المتقربون بأفضل من أداء ما افترضه الله عليهم**﴾ وترك الترتيب من جملة الغُرور.

الصِّنْفُ الثَّالث من المغرورين

منهم فرق: فرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والصهاريج للماء، وما يظهر للناس، ويكتبون أسماءهم بالأخذ عنهم ليتجدد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم قد اكتسبوها من الظلم والشبهات، والرّشا، والجهالات المحظورة، وهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها، ومن ثم قد عصوا الله في كسبها.

فالواجب عليهم التوبة، وردها إلى مالكها إن كانوا أحياء وإلى ورثتهم، فإن لم يبق منهم أحد وانقرضوا، فالواجب صرفها في أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين، وأي فائدة في بنيان يستغني عنه ويتركه ويموت، وإنما غلب على هؤلاء الرياء، ولذة الذكر.

والوجه الثاني: أنهم يَظُنُّون بأنفسهم الإخلاص، وقصد الخير في الإنفاق وعلو الأبنية، ولو كُلِفَ أحد منهم أن يُنفِق ديناراً على مسكين لم تسمح نفسه بذلك؛ لأن حب المدح والثناء مستكن في باطنه.

وفرقة أخرى ربما اكتسبوا الحلال، واجتنبوا الحرام، والقعود على المساجد، وهي أيضاً مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب السمعة والثناء، فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء، وصرف المال إليهم أهم، فإن المساجد كثيرة، والغرض منها الجامع وحده، فيجزي عن غيره، وليس الفرض بناء مسجد في كل سكة، وفي كل درب، والمساكين والفقراء محتاجون، وإنما خَفَّ عليهم دفع المال

فـــي بناء المساجد لظهور ذلك بين الناس، ولما يسمع من الثناء عليهم من الخلق، فيظن أنه يعمل لله، وهو يعمل لغير الله، والله أعلم بذلك.

والثانـــي: أنـــه يُصرِّف ذلك في زخرفة المساوئ وتزينها بالنقوش المنهـــي عنها والشاغلة قلوب المصلين، وتشغلهم عن الخشوع في الصلاة، وعـــن حضـــور القلـــب، وهـــو المقصود وكل ما طرأ على المصلين في صلاتهم، وفي غير صلاتهم، فهو في رقبة الباني للمسجد إذ لا يحل تزيين المسجد بوجه.

قـــال الحسن (رضى الله عنه): إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبني مســـجده بالمدينة أتاه جبريل، فقال له: "**ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه**". وغرور هؤلاء رأوا المنكر معروفا، فاتكلوا عليه.

وفرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلـــبون به المحافل الجامعة، وربما تركوا جيرانهم جائعين، ولذلك قال ابـــن عباس (ﷺ): "في آخر الزمان يكثر الحج بلا سبب يهوى فيهم السفر، ويبســـط لهم في الرزق محرمون مسلوبون يهوى يأخذهم أحدهم بعيره بين القفار والرمال، وجاره مأسور إلى جنبه فلا يواسيه ولا يتفقده.

وفـــرقة أخـــرى من أرباب الأموال يحفظون الأموال، ويمسكونها بحكـــم الـــبخل، ويشتغلون بالعبادات البدنيَّة التي لا يحتاجون فيها إلى نفقة كصـــيام الـــنهار وقيام الليل، وختم القرآن، وهؤلاء مغروررون، لأن البخل المهلـــك قـــد استولي على باطنهم فهم محتاجون إلى قمعه باخراج المال، فاشـــتغلوا بطلب فضائل هم يستغنون عنها ومثالهم مثال مَنْ دخل في تربة حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول عنها بطلب السكنجبين ليسكن به الصفراء، ومَنْ لدغته الحية كيف يحتاج إلى ذلك؟

ولـــذا قـــيل لبشير: أن فلانا كثير الصوم والصلاة، فقال: "المسكين تــرك حَالـــه، ودخل في حال غيره، وإنمَا حَال هذا إطعام الطعام للجائع، والإنفـــاق على المساكين، فهو أفضل له من تجويع نفسه، ومن صلاته من جَمعه للدنيا ومَنعه للفقراء".

وفرقة أخرى غلب عليهم البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجونها من المال الخبيث الردئ الذي يرغبون عنه.. وذلك مفســد للنية محبط للعمل، وصاحبه مغرور يظن أنه مطيع لله تعالي، فهذا وغيره وأمثاله مغرورون بالأموال.

وفــرقة أخرى من عوام الخلق، وأرباب الأموال والفقراء، اعتزوا بحضـــور مَجَـــالِسَ الذكر، واعتقدوا أن هذا يغنيهم ويكفيهم، فاتخذوا ذلك يظـــنون أن لهـــم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجراً وهم مغرورون؛ لأن فضل مجالس الذكر لكونها مُرَغِّبَة في الخير، وإذا لم تهيج الرغبة فلا خير فيها.

الصنف الرابع من المغرورين

المتصوفة، وما أغلب الغرور على هؤلاء المغرورين منهم:

متصوفة أهل هذا الزمان، إلا من عصمه الله، اغتروا بالدين والمنطق، والهيئة، فشابهوا الصادقين من الصوفية في زِيِّهم وهيئتهم وألفاظهم وآدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وأحوالهم الظاهرة في السماع، والرقص، والطهارة، والجلوس على السجادة مع إطراق الرأس، وإدخاله في الجيب كالمتفكر، أو خفض الصوت في الحديث، وفي الصياح.. إلى غير ذلك، فلما تعلموا ذلك ظنوا أن ذلك ينجيهم، ولم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة والرياضة، والمراقبة للقلب في تطهير الباطن والظاهر.. وكل ذلك من منازل الصوفية، ثم إنهم يتكالبون على الحرام، والشبهات، وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف واللبس والجبة، ويتحاسدون على النفير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مما خالفه في شيء من غرضه، وهؤلاء مغرورون.

وفرقة أخرى ازدادت على هؤلاء في الغرور أنها صَعُبَ عليها بذالة الثياب والرضا بالدون في المطعم والمنكح والمسكن، وأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بداً من التزي بزيهم، فتركت الخز والابرسيم، وطلبت المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة، والسجادة المصبوغة، ولا يجتنبون معصية ظاهرة فكيف باطنه وإنما غرضهم رغد العيش، وأكل أموال السلاطين، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وضرر هؤلاء أشد من ضرر اللصوص؛ لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزي ويقتدي بهم الغير فيكون سبب هلاكهم. ومن اطلع على فضائحهم، ظنّ أن التصوف كذلك، فيصرح بذم الصوفية على الإطلاق.

وفــرقة أخــرى ادعــت علم المكاشفة، ومشاهدة الحق، ومجاوزة المقامــات والوصول، والملازمة في عين الشهود، والوصول إلى القرب، ولا يعــرف ذلــك، ولا وصل إليه باللفظ والاسم،ويلفق مع الألفاظ الطامة كلمات فهو يرددها، ويظن أن ذلك أعلى علم الأولين والآخرين، وهو ينظر إلــى الفقــراء والمقربيــن والمفسدين، والمحدثين، وأصناف العلماء بعين الازدراء، فصــلاً عن العَوَام، حتى الفلاح فى فلاحته، والحياك فى حياكته ويلازمهم أياماً معدودة، ويلفق تلك الكلمات الزائفة، فتراه يرددها كأنه يتكلم عــن الوحــي، ويخــبر عن أسرار الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلمــاء، فــيقول فــي العــباد: أُجَراء متقوبون، ويقول في العلماء إنهم بالحديــث محجوبــون، ويدعــي في نفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربيــن، وهــو عــند الله من الفُجَّار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقــي الجاهلين، لم يحكم قط علماً ولا يهذب خلقاً، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلفيق الهذيانات.

ولو اشتغلوا بما ينفعهم كان أحسن لهم.

وفــرقة أخرى جاوزت هؤلاء فأحسنت الأعمال، وطلبت الحلال، واشــتغلت بــتفقد القلب، فمنهم مَنْ يدعي المقامات من : الزّهد، والتوكل، والرضــا، والحــب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات، وشروطها، وعلاماتهــا، وآفاتها، فمنهم مَنْ يَدَّعي الوجد، وحب الله تعالى، ويزعم أنه أية بالله تعالى، ولعله قد يتخيل بالله تعالى خيالات فاسدة، هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله تعالى ونيل معرفته، وذلك لا يتصوره قط، ثم إنه لا يخلو من مفارقة ما يكره الله تعالى وإيثار هوى نفسه على أمر الله تعالى، وعن ترك بعض الأمور حياءً من الخلق، ولو خلا ما تركها حَياءً من الله تعالى.

وفرقة أخرى ضيقت على أنفسها أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص، وأهملت منه تفقد القلب والجوارح من غير هذه الخصلة الواحدة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومكسبه، ولم يدر المسكين أن الله تعالى لم يرض من العباد إلا بالكمال والطاعات، فمن اتبع البعض وأهمل البعض فهو مغرور.

وفرقة أخرى ادَّعت حسن الخلق، والتواضع والسَّماحة، فقصدوا الخدمة للصوفية، فجمعوا قوماً وتكلفوا خدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للحطام، وجمعاً للمال دائماً غرضهم الاتفاق والاتساع، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية، ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات لينفق عليهم لتكثر اتباعهم، ويُنشر بالخدمة اسمهم. وبعضهم يأخذ من أموال السلطان وينفق عليهم، وبعضهم من يأخذ لينفق في طريق الحج على الصوفية، ويزعم أن غرضه البر والإنفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة. وذلك اهمالهم لجميع أوامر الله تعالى ظاهراً ورضاهم يأخذ الجزاء، والإنفاق منه، ومثال ذلك : الذي ينفق ماله الحرام في طريق الحج.

وفرقة أخرى اشتغلت بالمجاهدة، وتهذيب الأخلاق، وتطهير النفس من عيوبها، وساروا يتحمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس، ومعرفة خداعها علماً وحرفة لهم، فهم في جميع أحوالهم يشتغلون بالحفظ، عن عيوب النفس، واستنباط دقيق الكلام في آفاتها.

وفرقة أخرى جاوزت هذه المرتبة، حيث انفتحت لهم أبواب المعرفة، فلَمَّا شموا من مبادئ المعرفة رائحة تَعَجَّبوا منها وفرحوا بها وأعجبهم غراسها، فتعلقت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم، وانسدادها على غيرهم، وكل ذلك غرور؛ لأن عجائب

طـــريق الله تعـــالى لـــيس لها نهاية، فمن وقف مع كل أعجوبة، وتقيد بها قصرت خطاه، وحُرِمَ الوصول إلى المقصد.

وفـــرقة أخرى جاوزت هؤلاء، ولم تلتفت إلى ما يفيض عليها من الأنـــوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يلتفتوا إلـــيها ولا عرجوا عليها، بل ساروا جادين في السير، فلما قاربوا الوصول ظـــنوا أنهـــم وصـــلوا، فوقفوا ولم يتعدوا ذلك وغلطوا، فإن الله تعالى له سـبعون حجاباً من نور، ولا يصل السَّالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا ويظـــن أنـــه قد وَصَل، وإليه الإشارة بقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه أفضـــل الصـــلاة والســـلام : ﴿**إذ قال : فَلَمَّا جَن عليه الليل رأى كوكبا**﴾ الآيةَ.. وما أكثر ما في هذا المقام، فأول حجاب بين العبد وربه نفسه، فإنه أمـــر ربـــانى عظيم، وهو نور من أنوار الله تعالى، أعني سر القلب الذي ستجلى حقيقته. وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي الساترة له، فإذا تجلـــى نـــوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى عليه، ربما التفـــت صـــاحب القلب إلى القلب فرأى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما صـــرخ وقال : أنا الحق. فإن لم يتضح له ما وراء ذلك ووقف عنده هلك. ولهـــذه العين نظر النصارى إلى المسيح عليه الصلاة والسلام لما رأوا من إشراق نور الله تعالى عليه، فغلطوا كمن رأى كوكباً في مرآة أو في ماء، فيمد يده ليأخذ، فهو مغرور.

وأنـــواع الغـــرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات، ولا تُستقصى إلا بعد شرح جميع العلوم.

- 2 -

كتاب منهاج العابدين

"تحليل وفهم وتبصير "

أولا: نماذج المخطوطة

كتاب منهاج العابدين

تأليف الشيخ الإمام والعالم الهمام

قدوة العلماء الأولين وارث

علوم سيد المرسلين

العارف بالله تعالى

محمد بن محمد

الغزالي تغمده

الله برحمته

ونفعنا

به آمين

هذا الكتاب لو يباع بوزنه ذهبا لكان البائع المغبونا

أوما من الخسران أنك آخذ ذهبا وتعطي جوهرا مكنونا

من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه

-63-

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام عبد الملك ابن عبد الله املا الشيخ الموفق حجة الاسلام ابو محمد ابن محمد ابن محمد زين الدين وهو الغزالي رضي الله عنه وهو اخر كتاب صنفه ولم يتمله منه الا خواص اصحابه الحمد لله الملك الحكيم الجواد الكريم العزيز الرحيم الذي فطر السموات والارض بقدرته ودبر الامور في الدارين بحكمته وما خلق الجن والانس الا لعبادته فالطريق واضح للقاصدين والدليل لايح للناظرين ولكن الله يضل من يشا ويهدي من يشا وهو اعلم بالمهتدين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى اله الابرار الطيبين اجمعين وسلم وعظم الى يوم الدين اما بعد فاعلموا اخواني اسعدكم الله واياكم بمرضاته ان العبادة ثمرة العلم وفايدة العمر وحاصل العبيد وبضاعة الاوليا وطريق الاتقيا وقسمة الاعزة ومقصد ذوي الهمة وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار ذوي الابصار وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة قال الله تعالى وانا ربكم فاعبدون وقال تعالى ان هذا كان لكم جزا وكان سعيكم مشكورا ثم انا نظرنا فيها وتاملنا طريقها من مباديها الى مقاصدها التي هي اماني سالكيها فاذا هي طريق وعر وسبيل صعب كثيرة العقبات شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة الافات كثيرة العوايق والموانع خفية المهالك والمقاطع كثيرة الاعدا والقطاع عزيزة الاشياع والاتباع وهكذا يجب ان تكون لانها طريق الجنة فيصير تصديقا لما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات وقال صلى الله عليه وسلم الا ان الجنة حزن بربوة الا ان النار سهل بسهوة ثم مع ذلك كله فان العبد ضعيف والزمان صعب وامر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير وفي العمل تقصير والناقد بصير والاجل قريب والسفر بعيد والطاعة هي الزاد

فلا بد منها وهي فائتة فلا مرد لها فمن ظفر بها فقد فاز وسعد ابد الابدين
ومن فاته ذلك خسر مع الخاسرين وهلك مع الهالكين فصار هذا الخطب
اذا والله مهولا والخطر عظيما ولذلك عز من يقصد هذا الطريق وقل ثم
عز من القاصدين من سلكه ثم عز من السالكين من يصل الى المقصود ويظفر
بالمطلوب وهم الاعزة الذين اصطفاهم الله عز وجل لمعرفته ومحبته وسددهم
بتوفيقه وعصمته ثم اوصلهم بفضله الى رضوانه وجنته فنسأله جل ذكره ان
يجعلكم وايانا من اولئك الفائزين برحمته ثم انا لما وجدنا هذا الطريق
بهذه الصفة نظرنا فامعنا النظر في كيفية قطعها وما يحتاج اليه العبد
من الاهبة والعدة والالة والحيلة من علم وعمل عسى ان يقطعها بحسن
توفيق الله تعالى في سلامة ولا ينقطع في عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ
بالله تعالى فصنفنا في قطع هذا الطريق وسلوكها كتبا كاحياء علوم الدين واسرار
المعاملات والقربة الى الله تعالى وغير ذلك ولصفوة ما فيها من دقائق من العلوم التي
اشكلت على افهام العامة فقدحوا فيها وخاضوا فيما لم يحسنوه منها واي كلام افصح
من كلام رب العالمين وقد قالوا انه اساطير الاولين الم تسمع الى قول زين العابدين
علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب رضي الله عنه انه يقول ويا رب جوهر علم لو ابوح
به ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون اقبح ما ياتونه حسنا لقيل لي انت ممن
يعبد الوثنا اني لاكتم من علمي جواهره كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا وقد تقدم في هذا ابو
حسن الى الحسين ووصى قبله الحسنا انتهى فاقتضت الحالة عند ذلك النظر
الى خلق الله تعالى بعين الرحمة وترك المماراة فابتهلت الى من بيده الخلق والامر
ان يوفقني لتصنيف كتاب يقع عليه الاجماع ويحصل بقراءته الانتفاع فاجابني الذي يجيب
المضطر اذا دعاه واطلعني بفضله على اسرار ذلك والهمني فيه ترتيبا عجيبا لم اذكره في
المصنفات التي تقدمت في اسرار معاملات الدين وهو الذي انا له واصف فاقول وبالله
التوفيق اول ما ينتبه العبد للعبادة ويتحرك لسلوك طريقها

خاطرة سماوية من الله تعالى بتوفيق خاص وهو المعني بقوله
سبحانه وتعالى أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور
من ربه وأشار إليه صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فقال إن النور
إذا دخل القلب انفسح وانشرح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة
يعرف بها فقال التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد
للموت قبل نزول الموت فإذا خطر بقلب العبد أول كل شيء أني
أجد علي نعما بضروب النعم كالحياة والقدرة والعقل والعلم والنطق
وسائر المعاني الشريفة واللذات وما ينصرف عني من ضروب المضار والآفات
وأن لهذه منعما يطالبني بشكره وخدمته وإن أغفلت ذلك فيزيل عني
نعمته ويذيقني بأسه ونقمته وقد بعث إلي رسولا أيده بالمعجزات
الخارقة للعادات الخارجة عن مقدور البشر وأخبرني بأن لي ربا
جل ذكره قادرا عالما حيا متكلما يأمر وينهى قادرا على أن يعاقبني إن
عصيته ويثيبني إن أطعته عالما بأسراري وما يختلج في أفكاري وقد
وعد وأوعد وأمر بالتزام قوانين الشرع فيقع في قلبه أنه ممكن إذ
ليس بمستحيل أن ذلك في العقل بأول البديهة فيخاف على نفسه عنده
وينزعج وهذا خاطر الفزع الذي ينبه العبد ويلزمه الحجة ويقطع عنه
المعذرة ويزعجه إلى النظر والاستدلال فينزعج العبد عند ذلك
ويقلق وينظر في طريق الخلاص وحصول الأمان مما وقع بقلبه وسمع فلم
يجد فيه سبيلا سوى النظر بعقله في الدلائل والاستدلال بالصنعة
على الصانع ليحصل له العلم اليقيني بما هو الغيب ويعلم أن له ربا كلفه
وأمره ونهاه وهذه أول عقبة استقبلته في طريق العبادة وهي
عقبة العلم والمعرفة ليكون من الأمر على بصيرة فيأخذ في
قطعها متى بدأ بحسن النظر في الدلائل ووفور التأمل والتعلم
وا...

والسؤال من علماء الآخرة أدلاء الطريق سرج الأمة وقادة الأئمة والاستفادة منهم واستهداء الدعاء الصالح منهم بالتوفيق والإعانة

إلى أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه فيحصل له العلم واليقين بالغيب وهو أن له إلها واحدا لا شريك له هو الذي خلقه وأنعم عليه بكل هذه النعم وأنه كلفه شكره وأمره بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه وحذره الكفر وضروب المعاصي وحكم له بالثواب الخالد إن أطاعه والعقاب الخالد إن عصاه وتولى عنه فعند ذلك تبعثه هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير للخدمة والإقبال على العبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده وعرفه بعدما جهله ولكنه لا يدري كيف يعبده وما الذي يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه فبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وتعالى وما يلزمه من فرائض الشريعة ظاهرا وباطنا فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض انبعث ليأخذ في العبادة ويشتغل بها فنظر فإذا هو صاحب جنايات وذنوب وهذا حال الأكثر من الناس فيقول كيف أقبل على العبادة وأنا مصر على المعصية متلطخ بها فيجب أولا أن أتوب إليه ليغفر لي ذنوبي ويخلصني من أسرها وأتطهر من أقذارها فأصلح للخدمة ولبساط القربة فتستقبله ها هنا عقبة التوبة فيحتاج لا محالة إلى قطعها ليصل إلى ما هو المقصود منها فأخذ في ذلك بإقامة التوبة في شروطها حتى يقطعها فلما حصلت له التوبة الصادقة وفرغ من هذه العقبة حن إلى العبادة ليأخذ فيها فنظر فإذا حوله عوائق محدقة كل واحدة منها تعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق فتأمل فإذا هي أربعة الدنيا والخلق والشيطان والنفس فاحتاج لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها وإلا فلا يتأتى له

الحساب ومنهم من تثقل الميزان ومنهم من لا توفق للميزان الا ... السادسة والسابعة ورود
الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظما بعدها ابدا السابعة
والثامنة جواز الصراط والنجاة من النار حتى منهم من لا يسمع حسيسها ويجد له النار
... والتاسعة الشفاعة فيعرضت الجنة نحو من شفاعة الانبياء عليهم
الصلاة والسلام العاشرة والحادية عشرة ملك الابد في الجنة الباقية والثانية عشر الرضوان الاكبر
الا يسعون ... رب العالمين اله الاولين والاخرين بلى كيف جل جلاله ثم تقدس
وانما اعددت ذلك على حسب فهمي ومبلغ علمي في قصوري والتقصير ومع ذلك فقد
اجملت واوجزت وذكرت من الاصول والجمل ولو فصلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب
الا ترى انه ... ملك الابد خلعة واحدة وان فصلتها لا ارتقيت على اربعين
خلعة من نوع الحور والقصور والملابس وعقبت ثم كل نوع يشتمل على تفصيل
لا يحيط بها الا عالم الغيب والشهادة الذي خلقها وملكها واي مطمع لنا في
معرفة ذلك وربنا سبحانه وتعالى يقول فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين ثم
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر وان المفسرين يقولون في قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد
كلمات ربي ان هذه الكلمات التي يقول الله عز وجل لاهل الجنة في الجنة باللطف
والاكرام ومن تكون حالة هذا فانى يبلغ جزءا من الف الف جزء منه وهم ...
او يحيط بهم علم ... مخلوق كلا بل تقاعدت الهمم وتقاصرت ... ولم لا
يكون ذلك كذلك وهو عطاء العزيز العليم على مقتضى الفضل العظيم وحسب الجود
القديم لمثل هذا فليعمل العاملون وليبذل المجهود دون جهدهم لهذا المطلوب
العظيم وليعلموا ان ذلك كله لاقل قليل في جنب ما هم اليه محتاجون واياه يطلبون
وله يتعرضون وليعلموا ان العبد لا بد له في الجملة من اربعة العلم والعمل والاخلاص
والخوف فيعلم اولا الطريق والا فهو اعمى ثم يعمل بالعلم والا فهو محجوب ثم يخلص العمل

والاخلاص

والوحدة والخوف فليسالك اولا الطريق والامر في امره ثم الجمل بالعلم والادب ويحيب
بعاصي العمل والادب ومقبوض ثم لا يزال يخاف ويحذر من الافات التي تعتور الاعمال
والاداب مع وجود [illegible] والنون المصري رحمه الله حيث يقول قال الخلق كلهم
موتى الا العلما والعلما كلهم نيام الا العاملين والعاملين كلهم مغترين الا المخلصين
والمخلصون على خطر عظيم قلت انا والعجب كل العجب من اربعة احدهم عاقل
غير عامل اما يهمه لمعرفة ما بين يديه اما يتعرف ماهو مطلع عليه بعد الموت عليه
بالنظر في هذا الايل والعبرة والاستماع الى هذه الايات والنذر والاعتبار فيها
للخواطر والهواجس التي تهيج هذه النفس قال تعالى اولم ينظروا في ملكوت
السموات والارض وما خلق الله من شيء وقال تعالى الا يظن اولئك انهم مبعوثون
والثاني من عالم غير عامل اما يذكر ام لعلم يقينا ما بين يديه من الاهوال العظام
والعقبات الصعاب وهذا هو النبا العظيم الذي انتم عنه معرضون والثالث
من عامل غير مخلص الا يتامل قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء الله فليعمل عملا
صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا والرابع من مخلص غير خائف اما ينظر الى معاملة
جل جلاله سبحانه وتعالى مع اوليائه واصفيائه وخدمه الدالين عليه وبين خدمته
حتى يقول لاكرم الخلق عليه ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت
ليحبطن عملك [illegible] الايات ونحوها حتى كان عليه السلام يقول شيبتني هود
واخواتها امام جملة الامر وتفصيله ما قاله رب العالمين في بعض ايات الكتاب
العزيز قوله عز وجل افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ثم قال
جل اسمه ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون
ثم قال جل من قائل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين
ثم جمل الكل فقال وهو اصدق القائلين ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله

لغني عن العالمين وشكر نستغفر الله من كل ما زل به القدم وطغى به
القلم ونستغفره من اقاويلنا التي لا توافق اعمالنا ونستغفر الله من
كل ما ادعيناه واظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه
ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتزين في كتاب سطرناه او كلام
نظمناه او علم افدناه ونسأله ان يجعلنا واياكم ممن اخوان بما علمنا
عاملين ولوجهه به مريدين وان لا يجعله وبالا علينا وان يجعله في ميزان
الصالحات اذا ردت اعمالنا الينا انه جواد كريم رؤوف رحيم فهذا
ما اردنا ذكره في شرح سفينة طريق الحق الآخرة وقد وفينا بالمقصود
ونسأل الله خيره ... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله واصحابه اولي الكرم والجود وشرف وكرم وسلم تسليما ... منهاج
العابدين بحمد الله وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم والحمد لله رب العالمين ولا عدوان الا على الظالمين اللهم اغفر لمؤلفه
ولكاتبه ولقاريه ولمن اطلع عليه ووجد فيه خللا وسد
والحمد لله رب العالمين تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
ليلة الاثنين المبارك الذي هو من سنة ١٢٦٤
على يد العبد الفقير الى مولاه ...
... كتابته ...
... الله ...
... الفوتي
... الفضل ... الله ... العجيب ... العزيز
... اذا رأيت ... وايام ... هل من لا ... عنه

ثانياً: مضمون ومفهوم النص

* مقدمة *

قـال الشيخ الإمام عبد الملك بن عبد الله: إملاء الشّيخ الموفق حجة الإسـلام، أبو محمد بن زين الدين وهو الغزالي رضي الله عنه، وهو آخر **كتاب صنَّفه** ولم يتمله منه إلا خَواص أصحابه:

الحمـد لله الملـك الحكيم الجواد الكريم، العزيز الرحيم، الذي فطر السـموات والأرض بقدرتـه، ودبَّر الأمور في الدَّارين بحكمته، وما خلق الجـنَّ والإنـسَّ إلا لعـبادته، فالطـريق واضح للقاصدين، والدليل لائح للناظرين، ولكن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الأبرار الطيبين أجمعين إلى يوم الدين.

اعلمـوا إخواني أسعدكم الله وإياي بمرضاته، أن العبادةَ ثَمرة العلمِ وفَـائدةِ العمر، وحَاصل العَبْد، وبضاعةُ الأولياء، وطريق الأقوياء، وقسمة الآخـرة ومقصد ذوي الهمة، وشعار الكرم، وخرقة الرِّجَال، واختيار ذوي الأبصار وهي سبيلُ السّعادة ومِنْهَاج الجَنَّة.

فقـال تعالى **﴿أنَا رَبُكم فاعبدون﴾**. وتأمّلنا طريقها من مبادئها إلى مقاصـدها التـي هي أماني سَالكيها، فإذا هي طَرِيْقٌ وَعِر وصعب، كثيرة القضـاة، شديدة المشقاة، بعيدة المسافات، عظيمة الآفات، كثيرة العوائق، والموانع وهكذا يجب أن تكون؛ لأنها طريق الجَنَّة، فيصير تصديقا لما قاله رسـول الله ﷺ: **﴿إنَّ الجَـنَّة حُفَّتْ بالمكاره وإن النَّار حُفَّت بالشهوات﴾**. والطاعـة هـي المراد، فلا بد منها، ولا مراد لها، فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين، ومَنْ فَاتَه ذلك خسر مع الخاسرين، وهَلَك مع الهالكين.

مضـــار هذا الخطب إذن والله معضلاً والخطر عظيماً، ولذلك عزَّ مـــن يقصد هذا الطريق وقل. ومن القاصدين من سيسلكه ثُم عزَّ مَنْ يَصل إلى المَقْصُود، ويَظْفر بالمطلوب، وهم الأعزة الذين اصطفاهم الله عز وجلَّ بمعرفته ومحبته.

ولما وجدنا هذا الطريق بهذه الصفة، نظرنا، فأمعنا النَّظَرَ في كيفية قطعهـــا، ومـــا يحتاج إليه العبد من الأهَبة والعدة والحيلة، من عِلمٍ وعملٍ عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله تعالى في سلامة، ولا ينقطع في عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ بالله.

وأول مـــا ينـــبه العبد للعبادة ويتحرك لسلوك طريقها بتوفيق إلهي خـــاص، هو المعني بقوله **﴿أفمن شرح الله صَدْرَهُ للإسلام فهو على نور من ربه﴾** فالله قادراً، عالما، حياً متكلماً يأمر وينهي، قادراً على أن يعاقبني إن عصيته، ويثبني إن أطعته، وهو تعالى عالماً بأسراري.

إلا أن أول عقبة تستقبل الإنسان في طريق العبادة، هي عقبة العلم والمعرفة ليكون من الأمر على بصيرة، فيأخذ في قطعها من غير يد بحسن الـــنظر في الدلائل، وفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الأُخرة، أدلاء الطريق، سُرُج الأمة، وقادة الأئمة.

الصَـــالح منهم بالتوفيق والأمانة إلى أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه، فيحصـــل له العلم واليقين بالغيب، وهو أن له إلها واحداً لا شريك له، هو الـــذي خلقـــه وأنعـــم عليه بكل هذه النعم، وأنه كلفه شكره وأمره بخدمته، وطاعـــته بظاهـــره وباطـــنه، وحذره الكفر وضروب المعاصي، وحكم له بالثواب الخالد إن أطاعه، والعقاب الخالد إن عصاه، وتولى عنه. فعند ذلك بعثـــته هـــذه المعرفة واليقين بالغيب على التشهير للخدمة، والإقبال على

العـــبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده، وعرفه بعد ما جهله، ولكنه لا يـــدري كيف يعبده، وماذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه. فبعد حصول هذه المعرفة بالله وما يلزمه من فرائض الشريعة ظاهرا وباطنا، واستكمل العلم والمعرفة بالفرائض، انبعث ليأخذ في العبادة، ويشتغل بها فنظر، فإذا هو صاحب جنايات وذنوب، وهذا حال الأكثر من الناس، فيقول: كيف أقبل على العبادة وأنا مصرّ على المعصية متلطخ بها، فيجب أولا أن أتوب إليه لـــيغفر لـــي ذنوبـــي، ويخلصني من أسرها وأتطهر من أقدارها، فأصلح للخدمة.

وهنا تستقبله العقبة الثانية وهي **التوبة**، فيحاج لا محالة إلى قطعها ليصـــل إلى ما هو المقصود منها، فأخذ في ذلك بإقامة التوبة في شروطها وحقائقهـــا إلـــى أن قطعها، فلما حصلت له التوبة الصادقة وفرغ من هذه العقـــبة، وحسن إلى العبادة ليأخذ منها، فنظر فإذا حوله عوائق محدقة كل واحدة منها تعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق، فتأمل فإذ هي أربعة : **الدنيا، والخلق، والشيطان، والنفس**، فاحتاج لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها، وإلا فلا يتأتي له أمر العبادة.

وها هنا تستقبله عقبة ثالثة وهي **العوائق**، فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمـــور : الـــتجرد عن الدنيا، والتفرد عن الخلق، والمحاربة مع الشيطان، وقمع النفس، فإذا، بأربعة عوارض تعترضه وهي:

أ- الرزق : تطالبه النفس به، وتقول لابد لي من رزق، وقوام، وقد تجردت عن الدنيا وتفردت عن الخلق فمن أين يكون قوامي ورزقي.

ب- الأخطاء : وهي من كل شيء يخافه الإنسان ويرجوه أو يريده أو يكرهه ولا يدري إصلاحه في ذلك أو فساده، فإن عواقب الأمور مبهمة فينشغل قلبه بها فإنه ربما يقع في فساد أو مهلكة.

جـ- الشدائد : وهي المصائب التي تنصب عليه من كل جانب، ولاسيما وقد انتصب لمخالفة الخلق، ومحاربة الشيطان ومضاضدة النفس، فكم عقبة يتجرعها، وكم شدة تستقبله، وكم من هم وحزن يعترضه.

د- القضـاء : فيقضي الله عز وجل بالحلو والمر، وترد عليه حالا فحالا، والنفس تسارع إلى السخط وتبادر إلى الفتنة، فأعاقته.

واستقبلته هنا عقبة رابعة، وهي العوارض الأربعة، فاحتاج إلى قطعها بأربعة:

أ- التوكل على الله في موضع الرزق.

ب- تفويض الله في موضع الرزق والخطر.

جـ- الصبر عند نزول الشدائد.

د- الرضا عند نزول القضاء.

فأخذ في قطع هذه العقبة، فلما فرغ من قطعها وعاد إلى قصد العبادة فنظر فإذا النفس فاترة، كسلا لا تنشط ولا تنبعث لخير كما يحق وينبغي وإنما ميلها أبدا إلى غفلة وراحة وبطالة، بل إلى سر وفضول وتسلية وعجالة، فيحتاج إلى قطعها لسائق يسوقها إلى الخير والطاعة وينشطها له وزاجر يزجرها عند المعصية، وهما الرجاء والخوف :

فالرجاء : هو في عظيم ثواب الله، وحسن ما وعد من أنواع الكرامات.

والخــوف : من أليم عقاب الله وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والإهانة.

فاســتقبلته عقــبة خامسة، وهي **البواعث** فاحتاج إلى قطعها بهذين الذكرين، فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها، فلما فرغ منها رجع إلـــى الإقبال على العبادة، فلم ير عائقا، ولا شاغلا، ووجد باعثا، وداعيا، فنشط في العبادة فأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة، فأدامها، فنظر، فإذا تــبدوا لهذه العبادة التي احتمل فيها كل ذلك، آفتان عظيمتان وهما؛ الرياء والعجــب فــتارة يرائي بطاعته للناس وأخرى يستعظم ذلك ويكرم نفسه، فيعجب بنفسه فتحبط عبادته ويفسدها.

وهــا هــنا تستقبله عقبة سادسة وهي **القوادح**، فاحتاج إلى قطعها بالإخلاص وذكر المنّة ونحوها ليسلم له ما يعمل من خير. فأخذ في قطعها بالله تعالى، واحتياط وتيقظ بحسن عصمة الجبار وتأييده وحصلت له العبادة كمـــا يحـــق، ويصبح غريقا في بحور النعم والمنن، فخاف أن يكون منه إغفال الشكر، فيقع في الكفران فيحط عن تلك المرتبة الرفيعة وهي مرتبة الخدام الخالصين لله عز وجل.

فاستقبلته هنا عقبة سابعة وهي **الحمد والشكر**، فأخذ في قطعها بما أمكـــنه مـــن الحمد الشكر فلما فرغ من هذه العقبة نظر فإذا هو بمقصوده ومبتغاة بين يديه فوقع في سهل القضاء، ثم يقع في رياض الرضوان ليصل لمرتبة المقربين وأصحاب الكرامات.

الفصل الأول

عقبة العلم والمعرفة

إن علـــى طالـــب الخلاص والعبادة أولا بالعلم فإنه القطب وعليه المـــراد فـــالعلم والعـــبادة جوهرات لأجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصـــنيف المصنفين، وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين بل لأجلهما أنزلت الكتـــب وأرسلت الرسل وخلقت السماوات والأرض وما فيهما من الخلق. فأعلم أن العلم شرف الجوهرين وأفضلهما، قال النبي(ﷺ) **﴿إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدين رجل من أمتي﴾**.

وقـــال **﴿ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة، قالوا بلى يا رسول الله، قال هم علماء أمتي﴾**

ولكـــن لا بد للعبد من العبادة مع العلم وإلا كان علمه هباءً منثورا، فـــإن العلـــم بمـــنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها، فالشرف للشجرة المثمرة إذ هي الأصل لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرتها، فإنه لا بد من الجمع بهما، فالعلم أولى بالتقديم لا محالة من العبادة وذلك لأمرين:

أحدهمـــا : لتحصل لك العبادة، فإنك أولا تعرف المعبود ثم تعبده. وكـــيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته، وما يجب له وما يستحيل فـــي نعـــته، فـــربما تعتقد في صفاته شيء والعياذ بالله تعالى، مما يخالف الحـــق، فـــتكون عبادتك هباء منثورا فكيف يجب أن تفعل، وكيف تجتنب معاصـــي لا تعلم أنها معاصي حتى لا توقع نفسك فيها فالعبادة الشرعية، كالطهارة، والصلاة، والصوم وغيرها يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها.

الثاني : أن العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته؛ قال تعالى : **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته، ولا يعظمه حق تعظيمه وحرمته فصار العلم يثمر الطاعة كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله، وليس وراء هذين مقصد للعبد في عبادة الله سبحانه وتعالى.

أمـــا علـــم الشـــريعة فكما فرض فعله وجب عليك معرفته لتؤديه، كالطهارة والصلاة والصيام، وأما الحج والجهاد والزكاة فيتعين عليك علمها لـــتؤديها، وإلا فهذه أحد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لا محالة، ويتعين فرضه بحيث لا بد لك من ذلك. فإن قلت: فهل يفترض عليّ أن أتعلم علم التوحيد ما انقضي به جميع الملل الكافرة وألزمهم حجة السنة وانقضى به جميع البدع وألزمهم حجة السنة.

فـــاعلم أن هذا فرض على الكفاية، وإنما يتعين عليك ما تصحح به اعتقادك في أول الدين لا غير، وكذلك لا يتعين معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه والإتيان على جميع مسائله.

وإن وردت عليك شبهة في أمور الدين تخاف أن تقدح في اعتقادك، فيتعيـــن عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع، وإياك والمجادلة فإنها داء محض لا دواء له، فاحترز منه جهدك، فإن من ارتداه لم يفلح إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه.

ثـــم اعلـــم أنـــه إذا كان في كل قطر داع من دعاة أهل السنة يحل الشـــبهة ويرد على أهل البدع، ويشتغل بهذا العلم ويصفي قلوب أهل الحق عـــن وسواس أهل المبتدعة، فقد سقط الغرض عن سواه، وكذلك لا يلزمك معـــرفة دقـــائق علم السر وجميع شرح عجائب القلب، وألا ما يفسد عليك

عـــبادتك، فتجنـــب معرفته لتتجنبه وما يلزمك فعله، كالإخلاص، والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك، فيلزمك معرفته لتؤديه، وأما سواه فلا. وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أنواع الفقه.

فإن قلت: هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الإنسان من غـــير معلـــم؟ فاعلم أن الإسناد فاتح ومسهل فالتحصيل معه أسهل وأروح والله تعالى بفضله يمن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم. ثم اعلم أن عقـــبة العلم هي عقبة كؤود، ولكن بها نُيال المطلوب والمقصود نفعها كثـــير، وقطعهـــا شديد وخطرها عظيم، كم من عَدَلَ عنها فضَلّ، وكم من سكلها فنزل، وكم من تائه منها متحيز، وكم من خير منقطع، وكم من سالك قطعها في مدة يسيرة، وآخر متردد فيها سبعين سنة والأمر كله بيد الله عز وجل.

أما نفعه فعلى ما ذكرنا من شدة الحاجة للعبد إليه وبناء أمر العبادة كلها عليه لا سيما علم التوحيد، وعلم السر. فاعلم أنك لو نظرت في دلائل صـــنع الله، فأمعنـــت النظر علمت أن لنا إلهاً واحداً قادراً، عالماً، مريداً، ســـميعاً، حـــدوث الكلام، والعلم والإرادة، مقدسا عن كل نقص لا يوصف بصـــفات الحوادث، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدودين. وإذا نظرت إلى معجزات الرسول، وإعلام نبوته تعلمت أنه رسول الله حقا وأمينه، وما جـــاء إلا بـــالحق نذيراً ومبيناً. ثم إذا نظرت إلي أعمال القلب والمواجب والمناهـــي التي تتأتى في كتاب الله؛ ليحصل لك علمه، ثم تعرف ما تحتاج إلـــى استعماله كالطهارة، والصلاة، والصوم، ونحوه، فإذا فعلت ذلك، فقد أديـــت فرض الله تعالى عليك الذي تعبدت به في باب العلم، وصرت من علمـــاء أمـــة محمد ﷺ الراسخين في العلم. فإن عملت بعلمك وأقبلت على

عمارة معادك كنت عبداً عالماً عاملاً لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا مقلد ولا غافل ولك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكثيرة والثواب الجزيل، وكنـــت قـــد قطعت هذه العقبة وخلفتها ورائك ورضيته تعالى المسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه وتيسيره إنه أرحم الرّاحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثاني

عقبة التوبة

عليك يا طالب العبادة بالتوبة وذلك لأمرين؛

أحدهمـــا: ليحصـــل لـــك توفيق الطاعة، فإن شؤم الذنوب يورث الحـــرمان ويعقب الخذلان، وإن قيد الذنوب يمنع المشي إلى طاعة الله عز وجـــل، والمسارعة في الطاعات، وإن الإصرار على الذنوب يسود القلب، فتجدها في ظلمة وقساوة، ولا خلوص فيها ولا صفاوة، ولا لذة ولا حلاوة.

الثانـــي: إنمـــا نلزمك التوبة؛ لتقبل منك عبادتك، فإن رب الدَّين لا يقـــبل منك هدية، وذلك أن التوبة عن المعاصي وإرضاء الخصوم دعامة العبادة التي تقصدها .

فكيف يقبل تبرعك والدَّين عليك حالُ لم تقضيه.

فـــإن قلـــت: فما معنى التوبة النصوح وحدها، وما ينبغي للعبد أن يفعلـــه للعبد حتى يتخلص من الذنوب كلها، فأقول: أما التوبة، فإنها سعي القلـــب، وهي عند التحصيل في قول العلماء تبرئة من الذنب. وقال شيخنا أبـــو بكر النساع رضي الله عنه في حد التوبة، "إنه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه" وهذه منزلة لا صورة تعظيما لله عز وجل، وحذرا من سخطه، ولها أربعة شروط:

(1) ترك اختيار الذنب. (2) التوبة من ذنب قد سبق فعله.

(3) إن الـــذي سبق يكون مثل ما يترك اختياره في المنزل والدرجة لا في الصورة.

(4) أن يكــون اختياره لذلك تعظيماً لله عز وجل، وحذراً من سخطه وأليم عقابــه مجرد لا لرغبة دنيوية، أو رهبة من الناس وطلب ثناء، أو ضعف فــي النفس، أو فقر أو غير ذلك. فهذه شروط التوبة وأركانها فإن حصلت واستكملت، فهي توبة نصوح حقيقية.

مقدمات التوبة:

هــناك ثلاثة مقدمات للتوبة: **إحداها**: ذكر غاية قبح الذنب. **الثانية**: ذكــر شــدة عقــاب الله تعالى وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة لك به. **والثالثة**: ذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك، فإن من لا يحتمل حرّ الشمس، ولطمــة شرطي، وقرض نمله كيف يحتمل حرّ نار جهنم، وضرب مقامع الزبانية، ولسع حيات كأعناق البُخت، وعقارب كالبغال خُلقت من النار في دار الغضب.

فإن قيل: أليس عدَّ ﷺ الندم توبة، ولم يذكر ما ذكرتم من شرائطها وشدد تم؟ يقال له: اعلم أولاً أن الندم غير مقدُور للعبد ألا ترى أن الندامة تقع على الذنوب لما ذهب بذلك جاهه بين الناس، وماله في النفقة فيها فإن ذلــك لا يكــون توبة بلا ريب، فعلمت بذلك أن الخير معنى لم تفهمه من ظاهره.

فالــندم لتعظيم الله عز وجل، وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح، فإن ذلك من صفات التائبين وحالهم، فإنه إذا ذكر الأذكار الثلاثة التــي هــي مقدمات التوبة، ندم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب، وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل تحمله على الابتهال والتضرع، فلما كان في ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه باسم التوبة.

والذنوب ثلاثة أقسام، إحداها: ترك واجبات الله عز وجل عليك من صـــلاة أو صـــوم أو زكـــاة أو كفـــارة أو غيرها، فتقضي ما أمكن منها. والثاني: ذنوب بَيْنَك وبين العِبَاد، وهذا أشكل وأصعب وهي أقسام قد تكون فـــي المال، وفي النفس، وفي العِرض، وفي الحرمة، وفي الدين. فما كان في المال فيجب أن ترده عليه إن أمكنك، فإن عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موتـــه وأمكن التصدق عنه، فافعل، وإن لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك والـــرجوع إلى الله عز وجل بالتضرع والابتهال إليه أن يرضيه عنك يوم القـــيامة، وكمـــا كان في النفس فتمكنه من القصاص حتى يقضي فيك، أو يجعلـــك في حِلٍّ، فإن عجزت فالرجاء إلى الله عز وجل، والابتهال إليه أن يرضيه عنك يوم القيامة.

وأمـــا العِـــرض فإذا أغتبته أو بهته أو شمته، فحق عليك أن تكذب نفسك بين يدي من فعلت ذلك عنده، وأن تستحل من صاحبه إن أمكنك هذا وإن لم تخش زيادة غيظ، وهيج فتنة من إظهار ذلك أو تجديده، فإذا خشيت ذلك فالرجوع إلى الله تعالى، ليرضيه عنك والاستغفار الكثير لصاحبه.

وأما الحُرمة، فإن خنته في أهله وولده ونحوه، فلا وجهُ للاستحلال والإظهار؛ لأنه يولد فتنة وغيظاً، بل تضرع إلى الله ليرضيه عنك، ويجعل لـــه خـــيراً في مقابلة ذلك. وأمَّا في الدين، فإن كفرته أو بدعته أو ضللته، وهو أصعب الأمر، فتحتاج إلى تكـــذيب نفســـك بين يدي من قلت ذلك له، وأن تســـتحل صـــاحبه إن أمكنك، وإلا فالابتهال إلى الله سبحانه وتعالى، والندم على ذلك ليرضيه عنك.

فـــلا تـــيأس، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فإنه دلالة الخير، أما تسمع قوله ﷺ "**خياركم كل مُفتن تواب**" أي كثير الابتلاء بالذنب،

كثير التوبة منه والرجوع إلى الله سبحانه بالندامة، والاستغفار. وتذكر قوله سبحانه "**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**".

الفصل الثالث

عقبة العوائق

إن على طالب العبادة دائما، دفع العوائق حتى تستقيم عبادته، وهذه العوائق أربعة؛

المبحث الأول

عائق الدنيا

وعلـــى طالــــب العبادة دفع الدنيا بالتجرد عنها، والزهد فيها، وإنما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين؛

أحدهمـــا: تســـتقيم العبادة وتُكثُر، فإن الرغبة في الدنيا تشغلَك، إما ظاهـــرك أو باطـــنك، وحديث النفس وكلاهما يمنع عن العبادة، فإن النفس واحـــدة، والقلب واحد، فإذا اشتغل بشيء انقطع عن ضده، وإن مثل الدنيا والآخـــرة، كمثل الضرين، إذا أرضيت إحداهما أسخط الأخرى، وإنما هما كالمشـــرق والمغرب، بقدر ما تميل إلى أحدهما أعرضت عن الآخر، فما روي عـــن ﷺ أنـــه قال: **﴿من أحب دُنْيَاه أضر بآخرته، ومَنْ أَحَبَّ آخرته أضرّ بدنيَاه، فآثروا ما تَبْقي على ما يفني﴾** فبان لك إنه إذا اشتغل ظاهرك بالدنيا وباطنك بإرادتها فلا تتأتى لك العِبادة بحقها. وأما إذا زهد في الدُنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه بالعبادة.

الثاني، أن يكثر قيمة عملك ، ويعظم قدره، ولقد قال الرسول (ﷺ) **﴿ركعـــتان مـــن رجل زاهد قلبه خير وأحب إلى الله جل جلاله من عبادة**

المتعبدين إلى آخر الدهر﴾ فالزهد في الدنيا هو خير وأحب إلى الله من تعلق القلب بالعباد والأشياء.

واعلم أن الزهد في الدنيا يقع في الحلال والحرام؛ فهو في الحرام فرض وفي الحلال نفل، ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمي الطاعة بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها إلا عند الضرورة بمقدار دفع الضرورة.

وأما الزُّهد في الحلال، فإنما يكون في منزلة الإبدال، فيكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة لا يتناولون منه إلا قدر لابد منه. والحرام عندهم بمنزلة النار لا يخطر ببالهم قصد تناولها بحال، وهذا معني البرودة على القلب بأن تنقطع همته عنها، ويستنكرها جدا فلا يبقى لها في قلبه إرادة ولا اختيار. فإن قلت: فكيف يمكن أن تصير الدنيا في شهواتها ولذاتها العجيبة المطلوبة عند الإنسان بمنزلة النار، وبمنزلة الجيفة المستحيلة؟ فاعلم أن من وفق التوفيق الخاص وعلم آفاتها وقدرها في أصلها، فتهيئ عنده ذلك، وإنما يتعجب من هذا الراغبون العميان عن عيب الدنيا وآفاتها المغترون بظاهرها وزينتها.

المبحث الثاني

عائق الخلق

عليك أَيّها العابد لطاعة الله تعالى بالتفرد عن الخلق، وذلك لأمرين؛

أحدهمـــا: إنهـــم يشـــغلونك عن عبادة الله عز وجل على ما حكي بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون، وواحد جالس بعيدا عنهم فأردت أن أكلمـــه، فقال: ذكر الله تعالى اشهى إليّ، فقلت أنت: وحدك، فقال: معي ربي وملكاي، فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله سبحانه له، فقلت أيـــن الطـــريق؟ فأشار بيده إلى السماء وقال: أكثر خلقك عندك غافل وقام فتركنـــي. وعـــنه أيضـــا فالخلق إذا يشغلونك عن عبادة الله عز وجل بل يمنعونك عنها، واعلم أيها الأخ في الدين أن نبيك محمد (ﷺ) وصف زمان العـــزلة وبيـــن نعـــته ونعـــت أهله وأمر فيه بالتفرد، وكان لا محالة أعلم بالمصالح والأصلح لأنفسنا.

الثانـــي: إن الـــناس يفسدون عليك ما يحصل لك من عبادة، إن لم يعصمك الله تعالى، بسبب ما يعترض من قِبلهم من دواعي الريّاء والتزين.

فاعلم أن الزمان قد أصبح في فساد عظيم، وأصبح الناس في ضُر كبير، فإنهم يَشْغَلُونك عن عبادته عز وجل حتى لا يحصل لك منها شيء، ثـــم يفسدون عليك، فلزمتك العزلة، والتفرد عن النَّاس والاستعاذة بالله من شـــر الزمان وأهله، والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته. فإن قيل: فما حكم العزلة والتفرد عن الناس، فبين لنا حال طبقات الخلق فيها؟ فاعلم أن الناس رجـــلان- رجـــل لا حاجـــة بالخلق إليه في علم وبيان حكم، فالأولى بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم إلا في جمعة أو في جماعة أو عيدٍ أو

حـــجٍ أو مجلـــس علم بالسنة، أو حاجة إلى معيشة لا بد له من ذلك، وإلا فيواري شخصه ويلزم كنه لا يَعرف ولا يُعرف. فأما أن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس، فلا يخالطهم في أمر من الأمور البتة من دين ودنيا، وجماعة وجمعة وغيرها، لما يري له في ذلك من مصلحته وفراغه،فإنه لا يســـتقيم له ذلك إلا بأحد أمرين: إمَّا أن يصير إلى موضع لا تلزمه هناك هـــذه الفروض كرؤوس الجبال وبطون الأودية، وإما أن يتقين بالحقيقة إن الضـــرر الذي يلحقه في مخالطتهم بسبب هذه الفروض أعظم من تركها، فحينئذ يكون له عذر في ذلك.

فإن قيل: أليس النبي (ﷺ) يقول: **"عليكم بالجماعات فإن يد الله مع الجماعـــة، وأن الشـــيطان ذئب الإنسان يأخذ الشاذة والناصية والقاصيه، وأن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد".**

فـــاعلم أن وورد أيضاً **"ألـــزم بيتك وابق مكانك وعليك، بالخاصة، ودع عنك أمر العامة، وأمر بالعزلة والتفرد في زمان السوء ولا تناقض"** في قوله ﷺ ولا بد بالجمع بين الحديثين بحول الله وقوته.

فاقول: قول الرسول الكريم "عليكم بالجماعة" يحتمل ثلاثة أوجه؟

(1) أنه يعني في الدين والحكم، أولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، وأما إذا يعتزل عنهم لصلاح في دينه، فليس هذا من ذلك في شيء.

(2) "علـــيكم بالجماعة" أي لا تنقطعوا عنهم في جمعهم وجماعتهم ونحوها، فإن فيها قوة الدين، وجمال الإسلام، وغيظ الكفار والملحدين، ولا يخلـــو ذلك من بركات ونظر من الله تعالى بالرحمة. وكذلك نقول، إن حق المـــنفرد أن يشارك الناس في الجموع والعامة في الخير، وأن يجانبهم في الصحبة والمزاحمة في سائر الأمور لما فيها من ضروب الآفات.

(3) إن ذلـــك في غير أزمان الفتنة للرجل الضعيف في أمر الدين والـــرَّجُل البصير القوي في أمر الله، إذا رأي زمان الفتنة الذي حذر النبي (ﷺ) منها.

المبحث الثالث

عائق الشيطان

عليك أخي وفقك الله وإيَّانا لطاعته: الابتعاد، ومجابهة الشيطان الذي يحاربك في عبادتك لله وحده، وألا تُشرك به شيئ. ويعاديك عند عبادتك لله حق عبادته. وعندما تتجرد لمناقضة الشيطان، ومغايظته وتجتهد في عبادتك، فإن لك عداوة خاصة من الشيطان، ويكون عليك ومعه أعوان أشدها عليك نفسك، وهواك، وله أسباب ومداخل، وأبواب أنت غافل عنها.

فإن قلت: فبأي شيء أُحَارب الشَّيطان، وبأي شيء قهره وأدفعه؟ فاعلم أن لأهل هذه الصناعة في هذه المسألة طريقين:

الأول : ما قال بعضهم: إن التدبير في دفع الشيطان الاستعياذ بالله سبحانه لا غير، فإن الشيطان طلب سلطة الله عليك؛ لمحاربتك فإن اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت وضاع عليك وقتك، فربما يظفر بك فيعقرك ويخرجك، فالرجوع إلى رب الكلب ليحرقه عنك أولا.

الثاني: ما قاله آخرون: الطريق مجاهدة، والقيام عليه بالرد والدفع والمخالفة.

والذي عندي أن الطريق العدل الجامع في أمره أن يجمع بين الطريقين، فيستعيذ بالله تعالى أولا من شره كما أمرنا، وهو لكافي شره، ثم إن رأيناه، ينقلب علينا علمنا أنه ابتلاء من الله، ليري صدق مجاهدتنا وقوتنا في أمره تعالى وصبرنا، كما يسلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرهم وشرهم، ليكون لنا حظ من الجهاد والصَّبر والشهادة.

فإن قلت: كيف تعلم مكائد الشيطان وكيف الطريق إلى معرفة ذلك:

فاعلم أنه له وجهين:

أحدهما: إن له وسواساً بمنزلة السهام، ويرميك بها، وذلك إنما يَتَبيَّن بمعرفة الخواطر وأقسامها.

الثاني: له حيل بمنزلة الشباك التي ينصبها الصياد، وذلك يتبين بمعرفة المكائد، أو صناعها ومجاريها. ولقد ذكر علماؤنا رضي الله عنهم أبوابا في الخواطر.

أولا: أصل الخواطر: إن الله تعالى بقلب ابن آدم ملكاً يدعوا إلي الخير يقال له **المُلهِم** فلدعوته الإلهام، وسلط في مقابلته شيطانا يدعو العبد إلى الشر يقال له **الوسواس** ولدعوته وسوسة.

فالملهم لا يدعو إلا للخير، أما الوسواس لا يدعوا إلا للشر.

أما **الخواطر:** فهى أثار تحدث فى قلب العبد تبعثه على الأفعال، وتدعوه إليها وسُميت بالخواطر لاضطرابها في خطرات العَبْدِ وحدوثها جميعاً في قلبه بالحقيقة من الله. لكنها أربعة أقسام:

* قسم منها ما يحدثه الله عز وجل في القلب ابتداء، فيقال له الخاطر فقط.
* وقسم يحدثه موافقا لطبع الإنسان، فيقال له هوى النفس.
* وقسم يحدثه عقب دعوة الملهم، فينسب إليه فيقال له الإلهام.
* وقسم يحدثه عقب دعوة الشيطان، فينسب إليه، فيقال له الوسوسة.

فهذه أربعة أقسام من الخواطر، ثم اعلم بعد هذا التقسيم أن الخاطر الذي من قِبل الله يكون بخير إكراماً، والزاماً للحجة، وقد يكون بشر امتحانا

وتغليظا للمحنة. والخاطر الذي يكون من قِبل الملهم لا يكون إلا بخير، إذ هو ناصح مرشد لم يرسل إلا لذلك. والخاطر الذي يكون من قِبل الشيطان لا يكـــون إلا بشرٍ إغواءً واستزلالاً، وربما يكون بالخير مكرا واستدراجاً. والذي يكون من قِبَل النفس يكون بالشر وربما لا خير فيه.

وبعـــد هذه الخواطر لا بد من معرفة ثلاثة فصول لا بد من التنبيه عليها فيها المقصود:

الفصل الأول: قال علماؤنا: إذا أردت أن تعرف خاطر الخير مـــن خاطـــر الشر وتفرق بينهما، فزنه بأحد هذه الموازين الثلاثة يتبن لك حاله:

الميزان الأول: أن تعرض الأمر الذي خطر ببالك على الشرع فـــإن وافقه فهو خير، وإن كان بالضد برخصة أو بشبهة فهو شر، فإن لم يتبين بهذا الميزان،

فالميزان الثاني: عرضه على الاقتداء، فإن كان في فعله اقتداء بالصـــالحين، فهو خير، وإن كان بالضد في الاقتداء بالصالحين فهو شر، فإن لم يتبين بهذا الميزان،

فالمـــيزان الثالـــث: وهـــو عرضه على الاقتداء على النفس والهـــوى، وانظـــر إذا كـــان ما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية وترهيب، فهو خير وإن كانت تميل إليه رجاء إلى الله وترغيب فهو شر.

الفصل الثاني: إذا أردت أن تفـــرق بين الخير والشر، أو بين خاطر شر قد يكون من قِبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من قِبل هوى النفس، أو من الله تعالى ابتداء، فانظر فيه إلى ثلاثة أوجه:

الأول: إن وجدته مصمما راتبا على حالة واحدة، فهو من الله عز وجــل، أو مـــن هوى النفس، وإن وجدته متردداً مضطرباً، فأعلم أنه من الشيطان. وكان بعض العارفين، يقول: هوى النفس مثل النمر، إذا حارب لا ينصرف إلا بقمع بالغ، وقهر ظاهر.

الثـاني: إن وجدته عقيب ذنب أحدثته، فمن الله تعالى عقوبة لشؤم ذلك الذنب، وإن كان هذا الخاطر مبتدءاً لا يعقب ذنب كان منك، فاعلم أنه مــن قِــبل الشـــيطان في الأكثر؛ لأنه يبتدأ بدعوة الشر، ويطلب بكل حال الإغواء.

الثالــث: إن وجدتـــه لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى فهو من الشيطان.

الفصـــل الثالث: إذا أَرَدْتَ أن تُفَرّقَ بين خاطر خير قد يكون من الله أو من الملك، فانظر في ذلك من ثلاثة أوجه:

الأول: إن كـــان قويـــا مصمما، فهو من الله سبحانه وتعالى، وإن كـــان متردداً فهو من الملك إذ هو بمنزلة ناصح يدخل معك من كل وجه، ويعرض عليك كل نصح رجاء إجابتك، ورغبتك في الخير.

الثـاني: إن كان عقيب اجتهاد منك أو طاعة فهو من الله.

الثالـــث: إن كان في الأصول والأعمال الظاهرة، فهو من الملك في الأكثر إذ الملك لا سبيل له لمعرفة باطن العبد.

أصـــل الحـــيل والمخادعات: إن مكائد الشيطان مع آدم في الطاعات سبعة أوجه:

(1) أن ينهـــي عنها، فإن عصمه الله تعالى ورده قال: فإني محتاج إلـــى ذلك العمل جداً، إذ لا بد من التزويد في الدنيا للآخرة التي لا انقضاء لها.

(2) الأمـــر بالتسويف، فإن عصمه الله تعالى ورده قال: ليس أجلي بيدي فأني إن اسوفت عمل اليوم إلى غد فهل الغد ملك لأحد؟

(3) يـــأمـــره بالـــعـــجـــلة، فـــيـــقول له عَجِل عَجِـــل لـــتـــفرغ لـــكـــــذا وكـــذا، فإن عصمه الله تعالى ورده، قال: قليل العمل مع التمام خَير مَن كثير مع النقصان.

(4) فيأمره بإتمام العمل مرائيا للناس، فإن عصمة الله تعالى ورده، قال: ما الذي أعمل بمرائيات الناس، أفلا نكتفي برؤية الله تعالى.

(5) ثم يريد أن يوقعه في العُجب، فيقول ما أعظمك، وأيقظك، فإن عصـــمه الله تعـــالى ورده، قـــال المنة لله تعالى في ذلك دوني، وهو الذي خصـــني بتوفيقه وجعل للعمل قيمة بفضله، ولولا فضله فما كان هذا العمل من قيمة.

(6) فيأتيه بقوله: اجتهد أنت في السرّ فإن الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله وأراد بذلك ضربا من الرياء. فإن عصمه الله ورده، قال: يا ملعون أنا عبد الله وهو سيدي وهو يُظهر إن شاء ويخفي إن شاء.

(7) فـــيقول لا حاجـــة لك إلى هذا العمل؛ لأنك إن خُلِقْتَ سعيداً لم يعـــزك ترك العمل، وإن خُلِقْتَ شقياً لم ينفعك فعلك. فإن عصمه الله تعالى ورده، قال: إنما أنا عبد الله وعلى العَبْدَ امتثال الأمر لعبوديته والرَّبُّ أعلم بربوبيـــته يحكم ما يشاء ويفعل ما يشاء؛ ولأنه ينفعني العمل كيف ما كنت لأني إن كنت سعيداً احتجت إليه لزيادة الثواب، وإن كنت شقيا، فأنا محتاج ..

إلـــيه كـــيلا أذُم على أن الله تعالى لا يعاقبني على الطاعة بكل حال، ولا تضرني على أني أن أدخلت النار وأنا مطيع أحب إلي من أدخل النار وأنا عـــاص. فكـــيف ووعـــد الله حق. وقوله صدق، وقد وعد الله تعالى على الطاعـــة بالثواب، فمن لقي الله تعالى على الإيمان والطاعة لن يدخل النار البـــتة ودخـــل الجنة، لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعده الصادق تعالى ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء إذ قال:

"الحمد لله الذي صدقنا وعده".

المبحث الرابع

عائق النفس

ثم عليك عصمك الله وإيانا بالحذر من هذه النفس الأمَّارة بالسوء فإنها آخر الأعـــداء، وبلاؤها أصعب البلاء، وعلاجها أعسر الأشياء، وداؤها أعضل الداء، ودواؤها أشكل الدواء، وإنما ذلك لأمرين:

أحدها: إنها عدو داخل، فإذا استحسن الإنسان من كل قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها اشدت من عداوتها وأضرارها، فما أوشك ما توقعه في فضـــيحة وهـــلاك، وهولا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله، ويعينه عليها برحمته.

الثانـــي: إنها أصل كل قبيحة وفضيحة، وخزي وهلاك وذنب وآفة وقـــع فـــيها خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة إمَّا وحدها، أو بمعونة ومساعدة إبليس لعنة الله عليه إلى يوم الدين.

فاعلم إنك لا بد من أن تذلها وتكسر هواها بثلاثة أشياء:

(1) منع الشهوات. (2) حمل أثقال العبادات. (3) الاستعاذة بالله.

فالنفس أمارة بالسُّوء إلا ما رحم ربي، فإذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت النفس الجموح بإذن الله.

فبادر إلى أن تملكها، أو تلجمها وتأمن من شَرِّهَا. فإن قلت: فبين لنا ما هى التقوى حتى نعلمها؟

فاعلم أولا أن التقوى كنز عزيز، فلئن ظفرت به نجوت وتخلصت، فكـــم تجـــد فيه من جوهر شريف وخير كثير، ورزق كريم، وفوز كبير، وغنم جسيم، وملك عظيم فكان خير الدنيا والآخرة.

وتحــت هذه الخِلّة التي هي التقوى جُمعت وحُملت كل نعم الخالق وتــأمل فــي القرآن من ذكرها، كم علق بها من خير، وكم وعَد عليها من ثــواب، وكــم أضاف إليها من سعادة، وأنا أعد لك من جملتها اثنتا عشرة خصلة:

(1) الثناء كما في قوله ﴿**وإنَّ تصــبروا وتتقــوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾.

(2) الحفظ والحراسة من الأعداء ﴿**وإنَّ تصبروا، وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**﴾.

(3) التأيــيد والنصــر ﴿**إن الله مــع الذيــن اتقــوا والذين هــم محسنون**﴾.

(4) النجاة من الشدائد والرزق من الحلال ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾.

(5) إصــلاح العمــل ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولو قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم**﴾.

(6)غفران الذنوب ﴿**ويغفر لكم ذنوبكم**﴾.

(7) محبة الله ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾.

(8) القبول.﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين**﴾.

(9) الإكرام والإعزاز.﴿ **إنا أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾.

(10)البشارة عند الموت ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾.

(11) النجاة من النار ﴿**وينجي الله الذين اتقوا**﴾.

(12) الخلود في الجنة.﴿ **أعدت للمتقين**﴾.

فهــذا كــل خــير وسعاة في الدارين تحت هذه التَّقوى، فلا تنسى نصيبك أيها الرجل منها. ثم الذي يختص بهذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

الأول: التوفــيق والتأيــيد. **الثاني:** إصلاح العمل وإتمام التقصير. **الثالث:** قبول العمل للمتقين.

واعلم أن التقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء:

أحدهــا: بمعنى الخشية والهيبة **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾**.

الثاني: بمعني الطاعة.

الثالــث: بمعــنى تــبرئة القلب من الذنوب، وهذه هي الحقيقة في الــتقوى دون الأولين ألا تري أن الله تعالى يقول **﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾**.

والــتقوى ثلاثــة مــنازل، تقوى عند الشرك، وتقوى عند البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية ولقد ذكر سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله تعالى؛ **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مــا اتقــو وآمــنوا وعملــوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾**.

وحــد التقوى الجامع تبرئة القلب عن شر ألم بك، ليسبق عنك مثله بقوة العزم عن تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر، ثم الشرور ضربان:

* شر أصلي: وهو ما ينهى الله عنه كالمعاصي المحضة.

* شـــر غـــير أصلي: وهو ما ينهي الله عنه تأديبيا، وهو حصول الحـــلال كالمـــباحات المـــأخوذة بالشهوات، فالأولى: تقوى خوض يلزمك بـــتركها عـــذاب الـــنار. والثاني: تقوى خير وأدب يلزمك بتركها الحبس والحســـاب واللـــوم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الثانية، والأدنى من التقوى، وهو منزلة مستقيمي الطاعات. ومن أتى بالثانية، فهو من الدرجة العلـــيا مـــن الـــتقوى وذلك منزلة مستقيمي ترك المباح. وإذا جمع بينهما باجتناب المعاصي، فقد استكمل معنى التقوى.

ونقـــول إنه من أراد أن يتقي الله، فيراعي الأعضاء الخمسة، فإنهم الأصول وهي العين، والأذن، واللسان، والقلب، والبطن.

الفصل الأول: العين:

علـــيك وفقـــك الله، وإيَّانـــا بحفظ العين، فإنها سبب كل فتنة وآفة، واذكر في أمرها ثلاثة أصول:

أحدهـــا: مـــا قـــال الله تعالى **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظـــوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون﴾** فإذا تأملت هذه الآية فإذا فيها مع قصرها ثلاث معاني عزيزة: تأديب، وتنبيه، وتهديد.

الثانـــي: مـــا روينا عن رسول الله ﷺ إن النّظر إلى محاسن المرأة سَـــهْم من سِهَامِ إبليس فمن تركها أذاقه الله طعم عبادة تسره، وإن وجد إن حـــلاوة العبادة ولذة المناجاة من العابدين بمكان. وهذا شيء مجرب عمله، وتحققـــه مِن عمل به إذا امتنع عن النظر إلى ما لا يعنيه يجد لذة العبادة، وحلاوتها، وللقلب صفوة لم يجدها من قبل.

الثالـــث: أن تـــنظر إلى كل عضو من أعضائك، لماذا يصلح ماذا عليّ فعله وحسب ذلك تصونه.

فهــذه الأصـــول الثلاثة إذا أحسنت التأمل فيها، كفتك المؤنة وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: الأذن:

فعليك بصيانة سمعك عن الفضول، وذلك لأمرين؛

أحدهما: إن المستمع شريك المتكلم.

الثانـــي: إن ذلك يهيج الخواطر والوسواس في القلب، ثم من ذلك تــبدو الأشغال في البدن، فالكلام الذي يقع في قلب الإنسان وسمعه بمنزلة الطعـــام الـــذي يقع في جوفه، فمنه الضار، ومنه النافع، ومنه الغذاء ومنه الســـم، بـــل إن بقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ، فالطعام يزول بزواله عن المعدة، وأما الكلام الذي وقع في قلب الإنسان، ربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه، فإن كان شيء ردیئاً فلا يزال يتبعه ويعنيه، وترد بسببه خواطر في القلب ووسواس، ويحتاج إلى أن يعرض عنها ويعدل بقلبه عن تذكرها ويستعين بالله من شرها.

الفصل الثالث: اللسان:

ثـــم عليك بحفظ لسانك، وضبطه وقيده، فإنه أشد الأعضاء جماحاً، وطغياناً وأكثرها فساداً وعدواناً، فعن قيس بن عبيد قال: "إني وجدت نفسي تحـــتمل الصوم في الحر الشديد بالبصرة، ولا تحتمل ترك كلمة لا تعنيها" فعليك إذن بالتحفظ جدا أو بذل المجهود، وتذكر خمسة أصول:

الأول: إن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان.

الثانـــي: حفظ وقتك، فإن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى يكون فيه ضياع الوقت.

الثالث: حفظ الأعمال الصالحة، فإن لم يعف لسانه، وأكثر الكلام يقع لا محالة في غيبة الناس.

الرابع: السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان الثوري: لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك. وقال الآخر: لا تبسط لسانك فيفسد عليك شأنك.

الخامس: ذكر آفات الآخرة وعاقبتها، فهو لا يخل إما أن يقول قولا محظورا حراما، أو قولا مباحا من فضول لا يعنيك.

الفصل الرابع: القلب:

ثم عليك بحفظ القلب وإصلاحه وحسن النظر في ذلك وبذل المجهود، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطراً وأكثرها أثراً وأشدها أمراً وأشقها إصلاحاً، وأذكر في ذلك خمسة أصول مقنعة:

الأول: قوله تعالى **﴿إن يعلم الله في قلوبكم..﴾** وقوله **﴿إنه عليم بذات الصدور﴾** فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيرا أو تهديدا للخواص من العباد؛ لأن المعاملة مع علام الغيوب خطيرة، فانظر ماذا تعلم من قلبك.

الثاني: قول الرسول (ﷺ) **﴿إن الله تعالى لا ينظر إلى صُورِكم وأجسامكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم﴾.**

فالقلب إذن موضع نظر رب العالمين، فيا من يهتم بوجهه الذي هو منظر الخلق، فيغسله، وينظفه من الأقذار والأدناس، ويزينه بما أمكنه لئلا ليطلع عليه مخلوق على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو مع نظر رب العالمين، فيطهره ويزينه كيلا يطلع رب العالمين على دنس وشين، وآفة

وعيب بل يهمله بفضائح الأقذار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه.

الثالث: إن القلب ملك مطاع والأعضاء كلها له تبع، فإذا صلح المتبوع صلح المتبع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية. ويقول الرسول (ﷺ)، **﴿إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب﴾**.

الرابع: إن القلب خزانة كل جوهر لعقد نفيس وكل معنى خطير أولها العقل وأجلها لمعرفة الله عز وجل وهي سبب سعادة الدّارين.

الخامس: إن أحوال القلب خمسة ليست لغيره.

أحدها: إن العدو قاصد إليه مقبل عليه ملازم له، فإن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فهو منزلة الإبهام والوسوسة يقرعانه أبداً بالدعوتين الملك والشيطان.

الثاني: إن الشغل له أكبر، فإن العقل والهوى كلاهما فيه، فهو معترك العسكرين الهوى وجنوده، والعقل وجنوده، تحاربهما ولقائهما وتناقضهما.

الثالث: العوارض له أكثر، فإن الخواطر كالسِّهام، ولا تزال تقع فيه كالمطر ينزل ليلا ونهارا، لا ينقطع، ولا أنت تقدر على منعها، فتُمتنع. وليس بمنزلة العين التي بين جفنين تغمض، وتستريح أو تكون في موضع خالي، أو ليل مظلم متكفي رؤيتها، أو اللسان الذي هو وراء الشفتين، وأنت القادر على منعه وتسكينه، بل القلب عرض للخواطر، لا يقدر على منعها والتحفظ عنها بحال ولا هي تنقطع منك بوقت.

الرابع: إن علاجه عليك عسير، إذ لا تكاد تشعر حتى يدب فيه آفة وتحدث له حالة فتحتاج إلى أن تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة.

الخامس: إن الآفات إليه أسرع، فهو للانقلاب أقرب من القدر في غليانها.

أما عن الأصول التي لا بد من ذكرها في علاج القلب، والحاجة إليها ماسة، وما غنية عنها البتة في شأن العبادة، فوجدت فى أربعة أمور، وهي مداحض العابدين وآفات المجتهدين، وفتن القلب وبليات النفوس. وأربعة في مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة والصلاح للقلوب؛

فالآفات الأربعة: الأمل، والحسد، والاستعجال، والكِبر.

(1) الأمل: هو العائق عن كل خير وطاعة، والجالب لكل شر وفتنة وإنه الدّاء العضال الذي يوقع في أنواع الفتن، وأعلم أنك إذا طال أمَلُك هاج لك منه أربعة:

أ- ترك الطاعة والكسل فيها، فتقول سوف أفعل والأيام بين يدي، ولا يفوتني ذلك.

ب- ترك التوبة وتسويفها، فتقول سوف أتوب وفي الأيام سعة وأنا شاب وسني قليل والتوبة بين يدي.

جـ- الحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، فتقول أخاف الفقر في الكبر وربما أضعف عن الاكتساب، ولا بد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هِرَم.

د- القسوة في القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا أملت العش الطويل لا تذك الموت والقبر.

(2) الحسد: وهو المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات، وإنه الـداء الكبـير الذي يبتلي به الكثير من القُراء، والعلماء فضلا عن العامة والجهال حتى أهلكهم وأوردهم النار. وأعلم أن الحسد يهيج خمسة أشياء:

أ- إفساد الطاعة. ب- فعل المعاصي والشرور.

ج- التعب والهم من غير فائدة. د- عمـي القلب حتى لا يكاد يفهم أحكام الله.

هـ- الحرمان والخذلان فلا تكاد تظفر بمراد وتنتصر على عدو.

فالحسد، هو إرادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح فإن لم ترد زوالها عنه وكنت تريد لنفسك مثلها فهو غبطة.

(3)الاستعجال: وهو الخصلة للمقاصد الموقعة في المعاصي، وإن فيها تبدو آفات وهي:

أ- أن يقصـد العـابد منزلة في الخير والاستقامة، ويجتهد، فربما يستعجل في نيلها وليس ذلك بوقتها، فأما أن يفتر وييئس ويترك الاجتهاد، فـيحرم تلك المنزلة، وإما أن يغلو في الجهد، وإتعاب النفس، فينقطع عن تلك المنزلة فهو ببين إفراط وتفريط، وكلاهما نتيجة الاستعجال.

ب- أن تكـون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى، ويكثر الدُعاء، فربما يستعجل الإجابة قبل وقتها فلا يجدها، فيفتر ويسأم فيترك العبادة.

فالاسـتعجال هو المعين الراتب في القلب الباحث عن الإقدام على الأمر بأول خاطر دون التوفيق فيه فهو من الندامة والملامة.

(4) الكـبر: وهـو خاطر في رفع النفس واستعظامها، والتكبر اتباعه. والتَّواضع خاطر في النفس يحتقرها والتواضع اتباعه. ولكل واحد

منها خاصي وعامي، فالتواضع العامي هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمأكل والمركب، والتكبر في مقابله الترفع عن ذلك. والتواضع الخاصي هو تذليل النفس على قول الحق، في مقابلة الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة، وخطيئة عظيمة. والتواضع العامي أن تذكر مبدأك ومنتهاك وأنت عليه في الحال من ضروب الآفات الأقدار.

فعليك في طريقك للعبادة مضاضدة تلك الآفات، وأن تمحو طول الأمل بقصر الأمل، والحسد بالشكر لله علي نعمه عليك، والاستعجال بالتأني والثقة في قدرة الله تعالى، والكبر بالتواضع.

الفصل الخامس: البطن:

عليك حفظك الله بحفظ البطن، وإصلاحه فإنه أشق الأعضاء إصلاحا على المجتهد، وأكثرها شغلا وأعظمها أثراً وضرراً، كأنه المنبع والمعدن، ومنه تهيج الأمور في الأعضاء من قوة وضعف ونحوه، فعليك إذن بصيانته عن الحرام والشبهة أولاً، ثم عن فضول الحلال ثانيا إن كانت لك همة في عبادة الله تعالى، فأما الحرام والشبهة فإنما يلزمك البحث عنه لثلاثة أمور:

أولها: جزء من نار جهنم. قال الله تعالى **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾**.

الثاني: إذا أكل الحرام والشبهة، لا يوفق للعبادة، إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى إلا كل طاهر مطهر.

الثالث: إن آكل الحرام والشبهة محروم، وإن أنفق له فعل الخير، فهو مردود عليه غير مقبول منه، فإذن لا يكون له من ذلك إلا العناء والكد وشغل الوقت.

أما الفضول في الحلال فإنه آفة العبادة، وبلية أهل الاجتهاد، وإني تأملت فوجدت فيه عشرة آفات هي أصول في هذا الشأن:

(1) في كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره.

(2) في كثرة الأكل فتنة الأعضاء وهيجانها وانبعاثها للفضول والفساد.

(3) في كثرة الأكل قلة الفهم والعلم، فإن البطنة تذهب بالفطنة.

(4) والرابعة، إن في كثرة الأكل قلة العبادة، فإن الإنسان إذا أكثر الأكـل ثقل بدنه وغلبته عيناه، وفترت أعضاؤه، فلا يجئ منه شيء، وإذا اجتهد إلى العبادة فلا حلاوة فيها إلا النوم.

(5) إن في كثرة الأكلَ فَقد حلاوة العبادة.

(6) إن فيه خطر الوقوع في الشبهة والحرام؛ لأن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزافا.

(7) إن فـيه لشـغل للقلب، والبدن بتحصيله أولاً وبتهيئته ثانياً، ثم بإبطاله ثالثاً، ثم بإفراغه والتخلص عنه رابعاً، ثم بالسلامة منه خامساً، بان يبدو منه آفة في البدن، بل آفات وعلل.

(8) مـن أمور الآخرة شدة سكرات الموت، فلقد روي في الأخبار إن شِدَّة سكرات الموت على قدر لَذَّة الحَيَاة، فمن أكثر من هذه، أُكثر له في تلك.

(9) نُقْصَـان الثَّواب في العقبى، فإنه بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص لك من لذات الآخرة.

(10) الحـبس والحسـاب واللوم والتعبير في ترك الذنب في أخذ الفضـول، وطلـب الشـهوات فإن الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب، وزينـتها إلى تباب، فهذه جملة العشرة وفي أحدها كفاية لمن نظر لنفسه، فعلـيك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوت كيلا تقع في حرام وشبهة، فيلزمك العذاب ثم بالاختصار من الحلال على ما يكون عدّه على عبادة الله سبحانه، فلا تقع في شر فتبقى في الحبس والحساب.

أما الفضول الذي يلزم منه الحساب والحبس وما المقدار الذي يلزم إذا أخذه العبد يكون أدبا، ولا يكون فضولا، ولا عليه فيه حبس ولا حساب يقال له أحوال المباح وهو في الجملة ثلاثة أقسام:

القسم الأول : أن يأخذه العبد مفاخرا، مكاثرا، مباهيا، مرائيا، فيكون الأخذ منه فعلا منكرا، يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير، وهو منكر وشر ويستوجب على باطن فعله، وهو التكاثر والتفاخر، عذاب النار.

القسم الثاني: أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك منه شر يستوجب عليه الحبس والحساب، لقوله تعالى ﴿**ثم لتُسئلن يومئذ عن النعيم**﴾.

القسم الثالث : أن يأخذ من الحلال في حال العذر قدرا يستعين به على عبادة الله، ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنة وأدب لا حساب عليه ولا عذاب، بل يستوجب عليه الأجر والمنحة.

فإن قيل: فما شرطه المباح حتى يصير خيرا وحسنة كما ذكرتم؟

فاعلم أنه يحتاج كونه خيرا في الأصل إلى شرطين؛ أحدهما : الحلال، والثاني : القصد في الحلال يجب أن يكون في حال عذر، وهو بحيث أن لم يأخذ ذلك المباح فينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل، يكون ذلك أفض من ترك المباح، فأن ترك مباح الدنيا فضيلة، فإذا كان الحال كذلك، فهو حال العذر.

أما القصد، فهو أن تقصد به العدة والاستعانة على عبادة الله تعالى، وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا ما فيه من التوصل إلى عبادة الله تعالى لما أخذت ذلك. فهذا ذكر الحجة في الحال العذر، ويصير ذلك الأخذ من الدنيا

الحـــلال خيرا أو حسنة وأدبا. وأما لو كان حاله حال العذر ولا يكون هذا القصد والذكر أو يكون له هذا الذكر ولا يكون في حال العذر، فلا يعد ذلك الأخــذ من جملة الخيرات. ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب، يحتاج إلى بصيرة وقصد يحمل بأنه لا يأخذ الدنيا بحال إلا للعدة على العبادة حتى أنه إن سهي عن ذكر الحجة في حال أجزاه ذلك القصد عن تجريد ذكر الحجة، فافهم ذلك راشدا.

فـــإن قيل: أخذ الدنيا الحلال الشهوة، هل يكون ذلك معصية، وهل يلـــزم علـــيه عـــذاب؟ وهل الأخذ بالعذر فرض أم؟ فأعلم أن ذلك فضيلة ونســـميه خيرا، وحسنة، والأمر به أمر تأديب والأخذ بالشهوة شر وسيئة، والنهي عنه نهي وزجر، وليس ذلك بمعصية، ولا يكون عليه عذاب، وإنما عليه الحبس والحساب واللوم والتعيير. فأن قلت: فما هذا الحبس والحساب الذي يلزم العبد، فأعلم أن الحساب أن تُسْألَ يوم القيامة عن ما إذا اكتسبت، وفيما أنفقت، وماذا أردت بذلك، والحبس حبس عن الجنة مده الحساب بذلك في عرضات القيامة بين أهوالها ومخاوفها عريانا عطشانا وكفى بذلك بلية. فهذه هي الأعضاء الأربعة التي هي الأصول، الأول : **العين**، وحَسْبُك فيها أن مـــدادا من الدين والدنيا على القلب، وإن خطر القلب وشغله وفساده في الأكـــثر مـــن العين، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام، **"من لم يملك يمينه فلـــيس للقلـــب عنده قيمة"**. والثاني : **اللسان** وحسبك فيه ربحك وغنيمتك وثمـــرة تعبك، واجتهادك كله العبادة والطاعة، فإن خطر العبادة واحتياطها وفسادها في الأكثر من قِبل اللسان، والتصنع والتزين والغيبة ونحوها يتلف عليك بلحظة واحدة ما تعبت فيه سنة بل خمسة عشر، ولذلك قيل: ما شيء أحط بطول السجن من اللسان. والثالث: **البطن** وحسبك أن مقصودك العبادة

وإن الطعـــام والشراب بذر العمل، وداؤه منه يبدو وينبت، وإذا جفت البذر لا يطيب الزرع، بل فيه خطران يفسد عليك أرضك فلا تصلح أبدا.

ومن ذلك ما بلغني عن معروف الكرخي أنه قال: "إذا صمت فانظر على أي شيء تفطر، وعند من تفطر، وطعام من تأكل، فكم من يأكل أكله فينقلـــب قلـــبه عما كان عليه ولا يعود إلى حاله أبدا، وكم من آكل حُرمت عليه قيام ليلة، وكم ومن نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل الآكلة، فيحرم بها قيام سنة".

فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق، والاحتياط البالغ الشديد في قوتك، ثم عليك بالأدب فيه وإلا كنت حمالا للطعام، مطيعا للأيام إذ قد علمنا يقينا بل رأينا عيانا أن العبادة لا يجئ منها بشيء إذا امتلأ البطن، وإن أكرهت الـــنفس على ذلك وجاهدت بضروب الحيل، فلا يكون لتلك العبادة لذة، ولا حلاوة، ولذلك قيل: لا تطمع بحلاوة في العبادة مع كثرة الأكل.

وأما **القلب**، فحسبك أنه الأصل، إن أفسدته فسد الكل، وإن أصلحته صـــلح الكـــل، إذ هـــو الشجرة وسائر الأعضاء فروع، فإذا صلح الملك صلحت الرعية، وإذا فسد فسدت.

فإذن صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليلا على صلاح القلب وعمـــرانه، وإذا رأيت فيهم خَللا وفسادا، فاعلم أن ذلك من خَلل في القلب وفساد وقع، بل الفساد فيه أكثر، فاصرف عنايتك إليه، فإذا أصلحته يصلح الكل.

ثـــم علـــيك بالاهـــتمام بالخصال الأربع التي ذكرناها من الأجل، والعجلـــة، الحســـد، والكـــبر، وإنمـــا خصصنا هذه الأربع من بين سائر الخصـــال، إذ هي تفتر سائر الناس عموما والغرار خصوصا، فتكون أقبح

وأشـــنع ترى الرجل القارئ يطول الأمل وبعده فيه خير فيوقعه في الكسل والتواني في العمل، وتراه يستعجل في تحصيل منازل الخير، فينقطع عنها أو في إجابة دعاء صالح، فيحرم ذلك أو في الدعاء على أحد بسوء، فيندم علـــى ذلك وتراه يحسد نظراءه على ما أتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ ذلك منه مبلغا يحمله على قبائح وفضائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر، أما الكـــبر فهو آفة إذا وقعت فيه، لوقعت في الكفر والطغيان، فعليك بالتواضع والزهد وذكر نعمة الله عليك دائما.

الفصل الرابع

عقبة العوارض

عليك يا طالب العبادة وفقك الله بكفاية العوارض الشاغلة عن العبادة لله تعالى، وسد سبيلها عليك لئلا تشغلك عن مقصودك، وهي أربعة عوارض الرزق، والأخطاء، والشدائد، والقضاء.

المبحث الأول : الرزق :

إن الرزق ومطالبة النفس به لمن عوائق العباد، وإنما كفايته بالتوكل على الله سبحانه وتعالى في موضع الرزق والحاجة بكل حال، وذلك للتفرغ للعبادة، ويتمشى لك من الخير حق. فإن لم تكن متوكلا، فلابد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة، إما ظاهرا وإما باطنا، إما بطلب وكسب بالبدن كعامة الراغبين، وإما بذكر وإرادة وسوسة بالقلب كالمجتهدين المعانين.

والعبادة تحتاج إلى فراغ القلب والبدن، ليحصل حقها والفراغة لا تكون إلا للمتوكلين.

أما المعلق الضعيف أبدا يكون بين تودد وقصور، كالحمار في معلفه. وعن سليمان الخواص: لو أن رجلا توكل على الله بصدق النية، لاحتاج إليه الأمر، وكيف يحتاج هو ومولاه الغني الحميد. وعن إبراهيم الخواص قال : لقيت غلاما في البرية، كأنه سبيكة فضة قلت: إلى أين يا غلام، فقال: إلى مكة، فقلت بلا زاد ولا راحلة، فقال: يا ضعيف اليقين، الذي يقدر على حفظ السماوات والأرض يقدر أن يوصلني إلى مكة بلا زاد

ولا راحلـــة. فلما دخلت مكة، فإذا هو يطوف، فلما رآني قال لي: يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعيف من اليقين.

فـــإذا قلت: أخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمه وما يلزم العبد منه في أمـــر الـــرزق؟ فـــاعلم إنمـــا يتبين لك بأربعة فصول: بيان نقطة التوكل وموضـــعه وحـــده وحصـــنه. وأما النقطة، فإنما هي توكل من التغفل من الوكالة، فالتوكل على أحد هو أن يتخذ بمنزلة الوكيل القائم بأمره الضامن لإصـــلاحه الكافي له من غير تكلف واهتمام، فهذه جملته. وأما الموضع، فـــاعلم أن التوكل اسم مطلق في ثلاثة مواضع أحدها : في موضع القسمة، وهـــي الثقة بالله تعالى بأنه لا يفوتك ما قسم لك وإن حكمه لا يتبدل وهذا واجب بالسمع.

الثاني : في موضع النصرة، وهو الاعتماد والوثاقة بنصرة الله عز وجل.

الثالث : في موضع الرزق والحاجة، بأن الله تعالى متكفل بما يقيم به بنيتك لخدمته فتتمكن من عبادته وقوله تعالى **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه..﴾**

وأعلم أن الرزق أربع أقسام:

1- الـــرزق المضمون : وهو الغذاء، وما به قوام البنية دون سائر الأســـباب فالضمان من الله تعالى، لهذا النوع، والتوكل، يجب بازائه بدليل العقـــل والشرع لأن الله تعالى كلفنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن ما يسد خلل البنية لنقوم بما كلفنا.

2- الـــرزق المقســـوم : وهـــو قســـمه الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ، ما يأكله ويمشي به ويلبسه كل واحد بمقدار مقدم، ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر كما كتب بعينه.

3- الـــرزق المملـــوك : فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له أن يملكه، وهو من رزق الله تعالى.

4- الـــرزق الموعـــود : فهو ما وعد الله المتقين من عبادة بشرط التقوى، حلالا من غير كد.

المبحث الثاني :- الأخطار :

واعلـــم أن كفايتها في التفويض، فعليك بتفويض الأمر كله إلى الله سبحانه وتعالى وذلك لأمرين :

أحدهمـــا : لطمأنينة القلب في الحال، فإن الأمور إذا كانت خطرة مبهمة لا تدري صلاحها من فسادها، فتكون مطربا، قائم النفس، لا تدري أتقع في صلاح أم فساد، فإذا فوضت المر كله إلى الله تعالى، علمت أنك لا تقـــع إلا في صلاح وخير، فتكون آمنا من خطر، فيطمئن القلب في الحال والمال. والطمأنينة والأمن والراحة في الوقت عظيمة.

الثانـــي : حصول الصلاح والخير في الاستقبال، وذلك لأن الأمور بالعواقب مبهمة، فكم من شر في صورة خير، وكم من خير في حلية نفع.

فـــإن قلـــت: بيـــن لـــنا معنى التفويض، وحكمه، فاعلم أن ها هنا موضعين بهما يتضح الكلام:

الأول موضـــع التفويض : اعلم أن المرادات ثلاثة، مراد يعلم يقينا أنـــه فساد وشر لا شك فيه البتة كالنار والعذاب مع الفعال كالكفر والبدعة والمعصية.

ومـــراد تعلـــم قطعا أنه صلاح كالجنة والإيمان والسنة، ونحو ذلك بـــالحكم، ولا موضـــع للـــتفويض فيه، إذ لا خطر فيه، ولا شك أنه خير وصلاح. ومراد لا تعلم يقينا أن لك فيه صلاح أو فساد، وذلك نحو النوافل والمـــناجاة، فهـــذا موضـــع التفويض، فليس لك أن تريده قطعا بالاستثناء وشـــرط الخـــير والصلاح، فإن قيدت الإرادة بالاستثناء، فهو تفويض وإذا أردت دون الاســـتثناء، فهو طمع مذموم منهي عنه. فموضع التفويض إذن كل مراد فيه الخطر، وهو إذن لا تستيقن صلاحك فيه.

الثانـــي معـــنى الـــتفويض، وهو: ترك اختيار ما فيه مخاطرة إلى المخـــتار المدبر العالم بمصلحة الخلق فالتفويض إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر.

وضد التفويض الطمع والطمع يجري على وجهين:

أحدهمـــا: فـــي معنى الرجاء، يزيد شيء لا خطر فيه أو مخاطرة بالاستثناء وذلك ممدوح غير مذموم.

الثاني: طمع مذموم، قال النبي ﷺ **﴿إياكم والطمع فإنه فقر حاضر وهلاك الدين وفساده الطمع، وملاكه الورع..﴾**

أما حسن التفويض فهو ذكر خطر الأمور وإمكان الهلاك، والفساد فـــيها، وحصـــن حصنه، ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر، والامتـــناع عـــن الوقـــوع لجهلك وغفلتك وضعفك، والمواظبة على هذين

الذكريــن تحملك على تفويض الأمور كلها إلى الله عز وجل، والتحفظ عن الحكم فيها، والامتناع عن إرادتها لشرط الخير والصلاح.

أمــا الخطــر الذي توجبون التفويض لأجله في الأمور، فاعلم أن الخطــر في الجملة خطران، خطر الشك بأنه يكون ولا يكون وإنك تصل إلــيه أو لا تصــل إليه، وهذا يحتاج فيه إلى الاستثناء، ويقع فيه باب النية والعمل. والثاني خطر الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك، وهذا الذي يحتاج فيه إلى التفويض، ثم اختلفت عبارة الأئمة في الخطر، فيري بعضهم أن الخطــر فــي الفعل هو أن يكون دونه نجاة، ويمكن أن يجامعه ذنب، فالإيمــان والســنة والاستقامة لا خطر فيها، إذ لا يمكن دون الإيمان نجاة الاستقامة ولا يجامعها ذنب، فإذن تصح إرادة الإيمان والاستقامة بالحكم.

المبحث الثالث : القضاء :

وورد أنواعــه، وإنما كفايته بالرضا به، فعليك أن ترضى بالقضاء لله عز وجل وذلك لأمرين:

أحدهما : التفرغ للعبادة، لأنك إذ لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشــغول القلب أبدا بأنه لو كان كذا، ولماذا لا يكون كذا، فإذا اشتغل القلب بشــيء من هذه الهموم كيف يتفرغ للعبادة، إذ ليس لك إلا قلب واحد وقد ملأته من الهموم، وما كان وما يكون من أمر الدنيا، فأي موضع فيه لذكر العبادة؟

الثاني : خطر ما في السخط من غضب الله جلّ ذكره.

فــإن قلــت: ألــيس الشرور والمعاصي بقضاء الله وقدره، فكيف يرضـــى العبد بالشر ويلزمه. فاعلم أن الرضا، إنما يلزم بالقضاء، وقضاء الشــر لــيس بشــر، وإنما الشر هو المقضي فلا يكون رضا بالشر. وقال

شـــيوخنا رضــــي الله عنهم المقضيات أربعة: نعمة، وشدة، وخير، وشر. فالنعمة يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي، ويجب عليها الشكر من حيث إنها نعمة. والشدة يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي، ويجـــب علـــيها الصـــبر مـــن حيث إنها شدة. والخير يجب عليه الرضي بالقاضي والقضاء والمقضي وعليه ذكر المنة من حيث إنه خـــير وفقه له. والشـــر يجب عليه فيه الرضى بالقاضي والقضاء والمقضي من حيث إنه يقضـــي لا مـــن حيث إنه شر، وكونه مقضيا يرجع إلى القضاء والقاضي بالحقيقة.

فالرضـــى والمحـــبة إنمـــا يكونا بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه، فكذلك هذا. فإن قيل : فالرضى يكون مستزيدا، قيل له: نعم بشرط الخير والصلاح دون الحكم، فلا يخرجه ذلك عن الرضى بل أن يدل على الرضى فهو أولى، لأن من أعجبه شيء ورضى ذلك استزاد منه.

المبحث الرابع : الشدائد :

إن كفايتك للشدائد والمصائب دائما تكون بالصبر في المواطن كلها وإنما ذلك لأمرين:

الأول : الوصول إلى العبادة وحصول المقصود فيها، فإن بني أمر العباد كله على الصبر واحتمال المشقات، فمن لم يكن صبور لم يصل إلى شيء منها بالحقيقة، وذلك أن من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها استقبلته شدائد ومحن ومصائب ووجوه أحدها، أنه لا عبادة إلا في نفسها مشقة، لا يـــتأتى فعل العبادة إلا بقمع النفس إذ هي زاجرة عن الخير ومخالفة الهوى وقهـــر الـــنفس من أشد الأمور على الإنسان. **وثانيهما** : إن العبد إذا فعل الخـــير مـــع المشـــقة لزمه الاحتياط حتى لا يفسد. **وثالثها** : إن الدار دار

محنة، فمن كان فيها فلابد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها، وذلك أقسام المصيبة في الأهل والقرابات والإخوان والأصحاب بالموت والفراق، وفي النفس بأنواع الأمراض والأوجاع، وفي العرض يقال الناس إياه والطمع فيه والازدراء به والغيبة والكذب عليه، وفي المال بالذهاب والزوال. ولكل واحدة من هذه المصائب لذعة وحرقة من نوع آخر، فيحتاج إلى الصبر عليها كلها وإلا فيمنعه الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة. **ورابعها** : إن طالب الآخرة اشد بلاءاً وابتلاءاً وأكثر محنة أبدا، ومن كان إلى الله تعالى أقرب إليه فالمصائب له في الدنيا أكثر، والبلاء عليه أشد، أما تسمع قوله عليه السلام **﴿أشد الناس ابتلاءا الأنبياء، ثم الشهداء، ثم الأمثل فالأمثل..﴾** فإن من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن، فإن لم يصبر عليها ويكون بحيث لا يلتفت إليها، انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة، فلا يصل إلى شيء من ذلك.

الثاني ما في الصبر من خير والآخرة من ذلك النجاة والنجاح قوله تعالى **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا..﴾** ومعناه المخرج من الشدائد وفيها الظفر على الأعداء، ومنها التقدم على الناس والإمامة، ومنها الكرامة العظيمة.

فعليك باغتنام هذه الخصلة الشريفة التي هي الصبر على المصائب والشدائد، وبذل المجهود فيها تكون من الفائزين.

ثم عليك أخيرا النظر في كيف تقطع هذه العبادة العقبة الشديدة المنيعة بدفع هذه العوارض الأربعة وإزاحة علتها، وإلا فلا تدعك تذكر مقصودك وتحصلها.

الفصل الخامس

عقبة البواعث

عليك يا أخي بالسير إذا استقام لك الطريق وسهلت السُبل، وارتفعت العوائــق وزالــت العوارض، ولا يحصل لك السير المستقيم إلا باستشعار الخوف، والرجاء والتزام حقهما على حدهما.

أمَّا الخوف، فإنه يجب عليك التزامه، لأمرين، **أحدهما**: للزجر عن المعاصي، فإن هذه النفس أمَّارة بالسوءِ ميَّالة إلى الشرّ، طماحة إلى الفتنة ولا تنتهــي عن ذلك إلا بالتخويف العظيم والتهديد البالغ، وليست هي في طــبعها حرة يهمها الوفاء، ويمنعها الحياء عن الجفاء، إنما هي ميَّالة دائما للمعاصــي. ذُكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعته إلى معصية، فانطلق ونزع ثيابه، وجعل يتمرغ في الرَّمضاء ويقول لنفسه ذوقي، فنار جهنم أشد حرا من هذه.

الثانــي: لــئلا يعجــب بالطَّاعــة، فيهلك، بل يقمعها بالذم والعيب والــنقص من الأسواء والأقذار التي فيها ضروب الأخطار، وذلك نحو ما ذكر الرسول (ﷺ) إنه قال: **"لو أني وعيسى أخذنا بما كسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحداً وأشار بإصبعيه"**.

وأما الرجاء فإنه يلزم استشعاره لأمرين:

أولا: البحــث عــن الطاعات، وذلك أن الخير ثقيل والشيطان عنه زاجــر والهوى إلى ضده داع، وحال أهل الغفلة من عِلية الخلق في النفس منطبع شاهد، والثواب الذي يُطلب به عن العين غائب، وأمر الوصول إليه فيما تحسبه بعيد، وإذا كان الحال على هذه الحالة، فلا تنبعث النفس للخير

ولا ترغب فيه، ولا تهتز له إلا بأمرٍ يُقابل هذه الموانع ويُسَاويها بل يزيد عليها وذلك الأمر هو الرَّجاء القوي في رحمة الله عز وجلّ، والترغيب البالغ فى حسن ثوابه، وكريم أجره. ولقد قال شيخنا رحمة الله عليه: الحُزن يَمْنَع عن الطعام، والخوف يمنع من الذنوب، والرَّجاء يقوي على الطَّاعات وذكر الموت يزهد في الفضول.

ثانيا: ليهون عليك الشَّدائد والمَشقَّات، واعلم أن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن طاب له شيء ورغب فيه حق رغبته، احتمل شرته ولم يبال بما يلقي من مؤنته. ومن أحب أحداً حق محبته أحب أيضا احتمال محبته حتى أنه ليجد بتلك المحبة ضروباً من اللذة، ألا تري محب العسل لا يفكر في لسع النحل لما يتذكر من حلاوة العسل.

وكذلك يا أخي، العباد الذين هم أهل الاجتهاد إذا ذكروا الجنة في طيب رائحتها وأنواع نعيمها من قصورها وحورها وطعامها وشرابها وحليها، هان عليهم ما احتملوه من تعب في عبادة، أو ما فاتهم في الدنيا من لذة ونعمة.

فإن كان أمر العبودية على الأمرين القيام بالطاعة والانتهاء عن المعصية وذلك لا يتم مع هذه النفس الأمارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب وتوجيه وتخويف، فإن الدابة الحرون تحتاج إلى قائد يقودها، وإذا وقعت في مهواه فربما ضربت بالسوط من جانب، وينوح لها بالشعير من جانب آخر حتى تنهض وتخلص مما وقعت فيه. وأن الصبي العزم لا يمر إلى الكُتاب حتى تنهض بتوجيهه وتقوم بتخويفه. فالخوف سابقها وسوطها، والرجاء شعيرها وقائدها. فعليك بالتزام الخوف والرجاء يحصل لك مرادك ويسهل عليك احتمال المشقة.

فـــإن قلت: ما حقيقة الرجاء والخوف وأحكامهما؟ فأعلم أن الخوف والـــرجاء عند علماؤنا يرجعان إلى الخواطر وإنما المقدور للعبد مقدماتها. قـــالوا: الخـــوف يحـــدث في القلب عن مكروه يناله، والخشية نحوه، لكن الخشية تقتضي ضربا من الاستعظام والمهابة. وضد الخوف الجرأة ولكن قـــد يقـــابل بالأمرين فيقال: خائف وآمن وخوف أمن لأن الأمن هو الذي يجري على الله تعالي. والحقيقة أن الجرأة تضاده. ومقدمات الخوف أربعة:

(1) ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا إلى المظالم وانت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد.

(2) ذِكر شدة عقوبة الله سبحانه التي لا طاقة لك بها.

(3) ذِكر ضعف نفسك عن احتمالها.

(4) ذِكر قدرة الله تعالي عليك متى شاء وكيف شاء.

أمـــا الرجاء فهو ابتهاج القلب لمعرفة فضل الله تعالى، واسترواحه إلـــى سعة رحمة الله وهذا من جملة الخواطر غير المقدورة للعبد الذي هو مقدور، وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته. وقد سمى أيضا إرادة المخاطر. والمـــراد من هذا ذكر حسن الابتهاج والاسترواح وضده اليأس وهو تذكر فوت رحمة الله تعالى وفضله، وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة. وهـــذا الرجاء فرض إذ لم يكن للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس إلا به، وإلا فهو ثقل بعد اعتقاد الجملة في فضل وسعة رحمته.

ومقدمات الرجاء أربعة:

(1) ذكر سوابق فضله إليك من غير شفيع.

(2) ما وعد من جزيل الثواب وعظيم كرامته حسب فضله وكرمه دون اســتحقاقك أيــاه بــالفعل، إذ لو كان على حسب فعل لكان أقل شيء وأصغر أمر.

(3) ذكر كثرة نعمه عليك في أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الإمداد والألطاف من غير استحقاق أو سؤال.

(4) ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه، وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين.

فــإذا واظبــت علــى هذيــن النوعين من الأذكار افضينا بك إلى استشعار الخوف والرجاء بكل حال، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة في تمام الاحتياط والتحذر وحد الــرعاية فإنهــا عقبة دقيقة المسلك، خطرة الطريق، وذلك أن طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين:

الأول طريق الأمن. الثاني: طريق اليأس.

والــرجاء والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجائزين. فإذا غلــب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف البته وقعت في طريق الأمن، **ولا يأمــن مكر الله إلا القوم الخاسرون**. وإن غلب الخوف حتى فقدت الرجاء البتة وقعت في طريق اليأس، **ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**.

فــإن كنت بين الرجاء والخوف واعتصمت بهما جميعاً فهو بتوفيق الله الطريق العدل المستقيم.

الفصل السادس

عقبة القوادح

علـــيك يـــا أخـــي أمدك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد ما استبان لك السـبيل، واسـتقام لك المسير بتمييز سعيك وصيانته عما يفسده ويضيعه علـيك، وإنمـا ذلـك بإقامـة الإخلاص وذكر المنة والاجتناب عن ضده لأمرين:

لما في فعله من الفائدة، وحسن القبول من الله تعالى، ووفور الثواب عليه، وإلا فيكون مردوداً إذا ذهب الثواب كلاً أو بعضاً.

وقيل إن الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة إذا التمس ثواب عمله: **ألم أوسـع لـك فـي المجـالس ألم تكن المراس في الدنيا ألم يرخص بيعك وشـراؤك ألـم تكرم هذا واشباهه من الخطر والضرب؟** قلت: من خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان؟

أما الفضيحتان:

فالأولى: فضيحة الصريرة في اليوم على رؤوس الخلائق، وذلك ما روي أن الملائكـة تصعد بعمل العبد المستهجن فيقول الله ردوه إلى سجين فانه لم يردني به فينفضح ذلك العمل والعبد.

الثانية: فضيحة العلانية وهي يوم القيامة على رؤوس الخلق. روي عن النبي ﷺ **أن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء وهي: يا كافر يا فاجـر يـا غـادر يا خاسر، ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك التمس الأجـر ممن كنت تعمل له يا مخادع.** وروي أنه ينادي منادي يوم القيامة

يُســـمع الخلائق: **أين الذين كانوا يعبدون الناس رياء قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فإني لا أقبل عملا خالطه شيء.**

أما المصيبتان:

فـــالأولى: فـــوت الجـــنة، وذلك ما روي عن النبي (ﷺ) **أن الجنة تكلمت وقالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي.** والخبر يحتمل معنيين:

1- إن هذا البخل من بخل باقبح بخل وهو قول "لا إله إلا الله محمد رســـول الله" وهذا المرائي من يرائي بأقبح رياء وهو المنافق الذي يرائي بايمانه وتوحيده.

2- أنـــه لم يثبت رأساً عن البخل والرياء ولم يراع نفسه، فيقع في الكفر، فتفوت الجنة عليه والعياذ بالله.

الثانية: دخول النار، وذلك لما روي أبو هريرة عن النبي (ﷺ) أن أول مـــن يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن للقراءة، ورجل قاتل في ســـبيل الله، ورجـــل كثير المال. فيقول الله تعالى للقارئ: **"ألم أعلمك مما أنزلـــت علـــى رسولي"** فيقول بلى يا رب، فيقول الله تعالى: **كذبت** وتقول الملائكة كذبت، ويقول تعالى **"بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل".**

فـــإن قلـــت: فاخبرني عن حقيقة هذا الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثـــيرهما فـــي العمـــل. فاعلم أن الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما شديد، فالإخلاص في العمل عند علمائنا اخلاصان:

إخلاص العمل له وهو إرادة التقرب إلى الله عز وجل وتعظيم أمره وإجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح.

أما الإخلاص الآخر فهو النفاق بمعنى التقرب إلى الله من دون الله تعالى.

ويقــول شــيخنا رحمه الله: إن النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذي هو للمنافق في الله عز وجل، وليس هو من قبيل الإرادات. وأما الإخلاص في طلب الأمر فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير.

وكــان شيخنا رحمه الله يقول: إن أراده نفع الآخرة بعمل الخير لم ترد إلا لجلب منفعة.

والرياء ضربان: رياء محض، ورياء تخليط، **فالمحض أن** يراد به نفع الدنيا لا غير. **والتخليط:** أن يراد به نفع الآخرة ونفع الدنيا.

أما تأثيرهما فإن إخلاص العمل يجعل الفعل قربة، وإخلاص طلب الأجــر أن يجعلــه مقــبولا لا وافر الأجر والتعظيم. والنفاق يحبط العمل ويخــرجه عــن كونــه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله سبحانه وتعالى.

فالــرياء المحــض لا يكون من العارف عند بعض العلماء، وعند آخريــن مــن العلمــاء قد يكون الرياء المحض من العارف، وإنما يذهب بنصف الأضعاف، والتخليط يذهب بربع الأضعاف.

والصــحيح عند شيخنا أن الرياء المحض لا يكون من العارف مع تذكــر الآخرة ويكون مع السهو. والمختار أن من تأثير الرياء دفع القبول والنقصان في الأجر ولا يُقدر له نصف ولا ربع.

أمــا موضع الإخلاص وفي أي طاعة يقع ويجب فاعلم أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام:

الأول: يقــع فــيه الإخلاصــان معاً ويتمثل في العبادات الظاهرة الأصلية.

الثانـــي: لا يقــع فــيه شــيء منهما، ويتمثل في الأعمال الباطنة الأصلية.

الثالــث: يقع فيه إخلاص من طلب الأجر دون إخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعُدة.

وإذا قلت: أكل عمل يحتاج إلى إخلاص مفرد؟ فاعلم أنه قد اختلف فــي ذلــك، فقــيل: إنه يجب لكل عمل إخلاص مفرد. وقيل: يجوز تناول إخــلاص بجملـــة مـــن العبادات، فالعمل ذو الأركان كالصلاة والوضوء يكفــيهما إخــلاص واحد لأن بعضها متعلق ببعض صلاحاً وفساداً فصارا كشـــيء واحد. فإن قلت: فإن أراد جعله الخير من الله تعالى ولا يريد من الناس أشياء من مدحه أو سمعةٍ أو منفعةٍ، أيكون ذلك فيه رياء؟

فاعلم أن ذلك محض الرياء. وقال علماؤنا رحمهم الله: الأخبار في الرياء بالمراد لا بالذي تريد منه فإن مرادك من عمل الخير نفعا دنيوياً فإنه رياء سواء اردته من الله تعالى، أو من الناس.

القادح الثاني العُجب:

وهو يلزمك اجتنابه لأمرين:

الأول: إنـــه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى، ويسرع إلى الهلاك، ولذلك قال الرسول (ﷺ) ثلاثة مهلكات: "**شُح مطاع. وهوى متبع. وإعجاب المرء بنفسه**".

الثاني: إنه يفسد العمل الصالح. وفي ذلك قال المسيح عليه السلام: **يـــا معشر الحواريين كم من سراج قد اطفأته الريح وكم من عابد افسده العجب.**

فإن قلت: فما حقيقة العجب ومعناه وتأثيره وحكمه؟ فاعلم أن حقيقته استعظام العمل الصالح وتفضيله عند علمائنا رحمهم الله، ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشيء دون الله عز وجل، أو الناس أو الشيء. وقد يكون العجب مثلثا بأن يذكر من هذه الثلاثة جميعاً النفس والخلق والشيء. ومثنى بأن يذكر اثنين. وآحاد بأن يذكر من واحد.

وضد العُجب ذكر المنة: وهو أن يذكر أنه بتوفيق الله تعالى وأنه الذي شرفه وعظم قدره. وهذا الذكر فرض عند دواعي العُجب، ونفل في سائر الأوقات.

وأما تأثير العُجب في العمل، فقال العلماء: ينتظر الإحباط فإن تاب قبل موته سلم. والناس في العُجب ثلاثة أصناف:

(1) المعجبون بكل حال: وهم المعتزلة والقدرية الذين لا يرون لله عليهم منه.

(2) أصحاب اللطف: وصفتهم الذاكرون المنة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشيء من الأعمال وذلك لبصيرة اكرموا بها وتأييد.

(3) المخلصون: وهم عامتنا أهل السنة، تارة ينتهون فيذكرون منة الله تعالى، وتارة يفعلون ويعجبون وذلك لمكان العقلة العارضة والفترة في الاجتهاد والنقض في التبصر.

فإن قيل: هل يسوى العجب والرياء من قادح في العمل؟ قيل: أجل إن فيه لقوادح لكننا خصصناهما بالذكر لأنهما الأصل الذي يدور عليه معظم الأمر. وقد قال المشايخ: إن حق العبد أن يتحفظ في العمل من عشرة أشياء هما:

النفاق- والرياء- والتخليط- والمن- والأذى- والندامة- والعجب- والحسرة- والتهاون- وخوف ملامات الناس.

وكل خصلة منها لها ضد، ولها بالعمل.

فضد النفاق الإخلاص، وضد التخليط التفريد، وضد المن تسليم العمل لله، وضد الأذي تحصين العمل، وضد الندامة تثبت النفس، وضد العجب ذكر المنة، وضد الحسرة اغتنام الخير، وضد التهاون تعظيم التوفيق، وضد خوف الملامة الخشية.

واعلم أن النفاق يحبط العمل، والرياء يوجب رده، والمن والأذى يحبطان الصدقة في الوقت، وعند بعض المشايخ يبطلان أضعافها. فأما الندامة فتحبط العمل في قولهم جميعاً، والعجب يحبط أضعاف العمل فتذهب وزانته. قلت: فالقبول والرد عند التحصيل يرجعان إلى ضروب التعظيم والاستحقاق. والاحباط إبطال منافع تكون بالفعل وبسببه، فتارة يكون إبطال الثواب وأخرى إبطال التضعيف. والثواب منفعة يقتضيها الفعل بعنيه وقرائنه وأحواله. والتضعيف زيادة على هذا. والرزانة زيادة تحصيل ببعض قرائن وأحوال أخرى كالإحسان إلى أحد من أهل الخير، ثم إلى الوالدين ثم إلى نبي من الأنبياء.

فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة ذات المتالف، وأن تكون في غاية التحرز، فإن صاحب بضاعة الطاعات قد قطع تلك العقبات وتحمل تلك المشقات حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة شريفة، وأنه لا يخاف على بضاعته تلك إلا في هذه العقبة فإن فيها مقاطع تسلب بها بضاعته، ومتالف تبدوا له فيها آفات تفسد عليه طاعته. ثم أعظمها خطراً وأعمها

هــذان المقطعــان اللــذان هما الرياء والعجب. فلنذكر في كل واحد منها أصولاً مقنعة تجري هنا لك، لعلك تكفي مؤنتها بإذن الله.

الأصــل الأول: إن في الرياء قول الله تعالى **﴿الله الذي خلق سبع ســموات ومــن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾.**

الأصل الثاني: إن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ في ثمنه ألف ألف دينار ثم باعه بفلس، أليس ذلك خسرانا عظيماً ودليل على قصور العلم وضعف الرأي ودقة العقل، فما يناله العبد بعمله من الخلق من المدح، دون رضى رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لأقل من فلس في جنب ألف ألف ألف دينار بل، في جنب الدنيا وما فيها، من الخسران المبين أن يفّوت الكرامات الشريفة الفريدة بهذه الأمور الحقيرة.

الأصل الثالث: إن المخلوق الذي لاجله تعمل ورضاه تطلب لو علم أنك لاجله تعمل لا بفضلك واستحط عنك واستهان بك واستخف بك، فكيف تعمــل لأجــل من لو علم به أنه يطلب رضاه لسخط عليه وأهانه. فاعمل لأجــل مــن إذا عملت لأجله وقصدته بسعيك وطلبت رضاه بذلك، أحبك واكرمك وأعطاك.

الأصــل الــرابــع: إن مــن حــصل له الــرياء يــســعــى لأن يكسب رضى أعظم ملك في الدنيا، فأي رضى لمخلوق حقير ضعيف مهين وهو متمكن من تحصيل رضي رب العالمين الكافي عن الكل.

أما العُجب فنذكر فيه ثلاثة أمور:

(1) إذا فعل العبد إنما صارت له قيمة لما وقع من الله تعالى موقع الــرياء والقبول والرضى، وإلا فترى الأجير يعمل طول النهار بدرهمين

والحـــارس طوال الليل بدراهم معدودة فإن صرفت الفعل إلى الله يوما قال **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾**.

(2) ما يعلم أن الملك في الدنيا إذا أجرأ على أحد حراثه من طعام أو كسوة أو درهم أو دنانير فانية فإنه يستخدمه بضروب الخدمة آناء الليل والــنهار مــع ما في ذلك من الذل والصغار ويقوم على رأسه حتى تخدر رجـــلاه ويبقى بين يديه إذا ركب، وربما يحتاج أن يكون على بابه طوال الليل حارساً، وربما يبدو له عدو فيحتاج أن يقاتل لأجله ولأجل تلك المنفعة الــنكرة الحقيرة، مع أنها بالحقيقة من الله تعالى، وإنما هو بمنزلة سبب في ذلك، فربك هو الذي خلقك ولم تك شيئا ثم رباك وأنعم عليك بالنعم الظاهر والباطنة في دينك ودنياك.

(3) إن الملــك الذي من شأنه أن تخدمه الملوك والأمراء، ويقوم علـــى رأسه السادات والعظماء، ويتولى خدمته الأولياء والحكماء، ويطلب مدحه العلماء والعقلاء، ألا يقال على العجب به لسفه جداً ومجون، فالهناء من سبحانه هو الملك الذي يسبح له من في السموات والأرض ومن فيهن، وأن من شيء إلا يسبح بحمده، والمعبود الذي يسجد له من في الـــسموات والأرض طوعـــا وكـــرها. فمن الخدم على بابه: الأمين جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والنبيين، فركعتين إليه سبحانه وتعالى خير من الدنيا وما فيها. ألا تري منته تعالى عليك في ذلك، والله المستعان من هذه النفس الجاهلة.

فـــبعد هـــذه الجملة أقول لك: تيقظ من رقدتك أيها الرجل في هذه العقـــبة وأن لا تكن من الخاسرين، فإن هذه العقبة أشد وأشق وأضر وأمَرّ عقـــبة اســـتقبلتك فـــي هذا الطريق، فإن سلمت فنمت وربحت، وإن كانت

الأخرى فقد ضاع العمر كله، وطاب الأمل، وبطل العمل. ثم الشأن كله أنه قد اجتمع في هذه العقبة ها هنا ثلاثة أمور:

الأول: إن الأمـــر دقـــيق جداً والغبن شديد والخطر عظيم. أما دقة الأمر فإن يجاري الرياء والعجب في الأعمال الدقيقة الضيقة. فلا يكاد يتنبه لذلـــك إلا كـــل متمسك بأمر الدين، فيصير يقظان متحرر وإن أطلع عليه الجاهل الملعون والغافل النؤوم.

الثانـــي: شدة الغبن: فلأن الرياء والعجب أفة عظيمة تقع في لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة. وحكى أن رجل أضاف سفيان الثوري وأصحابه فقال لأهله: هاتوا الطبق لا الذي أتيت به في الحجة الأولى، بل الـــذي أتيـــت به في الحجة الثانية. فنظر إليه سفيان وقال: مسكين قد أفسد علـــيه حجته. ووجه آخر في الغبن أن أقل طاقة سلمت من الرياء والعجب تكـــون مـــن الله تعالى. فلينظر العاقل إلى الغبن الذي يضيع عبادة وعمل سبعين سنة.

فعلـــيك بالتحرز من هذه العوائق، ورعاية عبادتك وحفظها بالحمد والشـــكر، والاحـــتراس من اختيار المعاصي، حتى تحصل على نعيم الله ووعوده لكل ركوع سجود مسبح لنعم الله عليه.

الفصل السابع

عقبة الحَمد والشُكر

علـيك أخي وفقك الله وإيانا بالتسبيح والتهليل لنعم الله عليك لقطع عقبة الحمد والشكر. فإن قيل: ما حقيقة الحمد والشكر وما معناها وحكمها؟ فـاعلم أن العلمـاء فـرقوا بين الحمد والشكر من حيث الأشكال والتسبيح والتهليل، فالشكر من أشكال الصبر والتفويض، وهو يقابل الكفران، والحمد يقـابل اللوم، والحمد أعم وأكثر، والشكر أخص وأقل. فقال تعالى **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾**.

فثبـت أنهمـا معنيان متمايزان، فالحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن، وهذا معنى مقتضى كلام شيخنا رضى الله عنه ورحمه.

أمـا الشـكر فـتكلموا في معناه وأكثروا، فعن ابن عباس أنه قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق في السر والعلانية. وإلى نحـوه، ذهـب بعـض مشـايخنا فقال: الشكر هو أداء الطاعات بالظاهر والباطـن، ثم رجع إلى أنه اجتناب المعاصي ظاهراً وباطناً. وقال غيره: الشكر الاحتراس عن اختيار المعاصي بحريق قلبك ولسانك وأركانك متى لا تعص الله تعالى بشيء من هذه الثلاثة بوجه من الوجه والفرق بين قوله وبين قول الشيخ أنه جعل الاحتراس بمعنى الاجتناب عن المعاصي. وأما الاجتـناب عن المعصية فما هو إلا أن لا يفعل المعصية عند داعيها، ولا يكـون فـي نفسـه معنى يحصله، فيكون عن العندية منشغلا، وعن الكفر معتصـماً. فـإن قلـت: فما موضع الشكر؟ فاعلم أن موضعه النعم دينية

ودنيوية على أقدارهما. وأما الشدائد في المصائب في الدنيا في نفس وأهل وحال، فتسألوا في ذلك: هل يلزم العبد الشكر عليها؟

قـــال بعضـــهم: لا يلزم العبد عليها من حيث هي، وإنما يجب فيها الصـــبر. وأما الشكر فهو على النعمة لا غير. قالوا: وما عن شدة إلا في جنـــبها نعـــم الله تعالى فيلزم الشكر على تلك النعم المقرونة بها دون نفس الشـــدة. وتلك النعم تتمثل فيما قال ابن عمر ﷺ ما ابتليت ببلية إلا كان الله تعالى عليّ فيها أربع نعم إذ لم تكن في ديني، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ لـــم أُحرم الرضا، وإذا وجدت الثواب عليها.وقد قيل أيضا إن تلك الشدائد زائلـــة غير دائمة، وأنها من الله تعالى دون غيره وإن كانت بسبب مخلوق فإنمـــا لـــك عليه. فإذن يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة. وقال آخـــرون وهو الأولى عند شيخنا رحمه الله: إن شدائد الدنيا ما يلزم العبد الشـــكر عليها لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرّض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة وأعراض كريمة.

أمـــا تري إلى النبي ﷺ كيف حمد الله تعالى وشكره على الشدائد، وشكره على المسار حيث قال: **﴿الحمد لله على ما ساء وسر﴾**، وما تري كيف يقول جل وعز **﴿وعسى أن تكرهوا شيء ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾** وسماه خيراً فهو أكثر مما يبلغه وهمك، وإذا كانت الشدة مما تصير سببا فـــي زيادة شرف العبد وزيادة نعمه درجة فتكون فيها بالحقيقة، وإذا كانت تعـــد في الشدائد والمحن بظاهرها، فاعلم أن ذلك موفقاً فإذا قلت: فالشاكر أفضل أم العابد؟ فاعلم أن قيل إن الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى: **﴿وقليل مـــن عبادي الشكور﴾** وجعلهم أخص الخواص؛ والشاكر بالحقيقة لا يكون إلا شـــاكراً لأن الشـــاكر فـــي دار المحنة لا يخلوا من محنة لا محالة ولا

يجــزع، فإن الشكر تعظيم المنعُم على حد يمنع عصيانه والجزع عصيان، والصابر لا يخلوا من نعمة، كما ذكرنا أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المــتقدم فإنه شكر بالحقيقة إذ صبر لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله عز وجل.

فعليك أيها الرجل ببذل المجهود في قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة الكبيرة الجدوى العظيمة القدر، وتأمل أصلين:

أحدهما: إن النعمة إنما تعطي من يعرف قدرها وإنما يعرف قدرها الشاكر.

الثانــي: إن الــنعمة إنما تسلب مِن مَن لا يعرف قدرها، والذي لا يعــرف قدرهـــا الكفور الذي كفر بها ولا يؤدي شكرها، ودليل ذلك قوله تعــالى: **﴿اتــل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾.**

إذن فعلــيك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف نعمة الله تعالى عليك، وإذا أنعم بنعمة الدين فإياك أن تلفت إلى الدنيا وحطامها فإن ذلك لا يكــون منك إلا بضرب التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين. قال تعالى **﴿لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾.**

فقل الحمد لله الذي مَنّ عليّ بنعمة الإسلام والحمد لله الأكبر والمنة العظمـــى التي هي الإسلام فإنها الأولى والأخرى بأن لا ينفد ليلك ونهارك عــن شكرها. فإن كنت عاجزاً عن عرفانها قدرها، فاعلم بالحقيقة انك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت في شكر الإسلام من أول الوقت إلى الأبد، لما قضيت بعض الحق لما هنالك من الفوز العظيم.

فلتبدأ أيها المسلم من رقدة الغافلين مم أني تأملت في عطية الله العبد إذا أعطـاه وخدمـته وسـلك في هذا الطريق عمره فوجدتها على الجهالة أربعين كرامة خلعت عليها، عشرين منها من الدنيا، وعشرين في العقبى، أما الدنيا:

(1) أن يذكر الله تعالى ويثني عليه ويعبده حق عبادته.

(2) أن يعظم الله ويشكره وأن يتذكر ضعفه، وقوة وعظمة خالقه.

(3) إن يحبه. ولو أحبك لارتفعت في مواطن عزيزة.

(4) أن يكون له وكيلاً يدبر أموره.

(5) أن يكون رزقه كفيلاً بوجهه.

(6) أن يكون له نصيراً يكفيه كل عدو.

(7) أن يكـون لـــه انسـياً لا يستوحش بحال ولا يخاف التغير والاستبدال.

(8) عز النفس فلا يلحقه ذل.

(9) رفع الهمة. (10) طيب النفس. (11) نور القلب.

(12) شرح الصدر. (13) تعظيم الاكرام.

(14)المهابة من الله. (15) البركة العامة.

(16) تسخير الأرض. (17)

(18) ملك مفاتيح الأرض.

(19) القيادة والوجاهه على باب رب العزة.

(20) إجابة الدعوات.

وأما التي في العقبى:

(1) تثبيت من الله تعالى بالقول. (2) هوان أمر الموت.

(3) ارسال الروح والريحان بالبشرى. (4) الخلود في الجنان.

(5) الغنيمة بنعم جنات الله تعالى. (6) الأمان من فتنة سؤال القبر.

(7) تنوير القبر ليكون روضة في الجنة.

(8) مرافقة الصابرين والمبشرين بالجنة.

(9) الحشر في العز والكرامة. (10) بياض الوجه ونوره.

(11) الأمان من أهوال القيامة. (12) أخذ الكتاب باليمين.

(13) يسر الحساب أو عدم الحساب. (14) ثقل ميزان الحسنات.

(15) شربة لا يظمأ الإنسان بعدها أبداً. (16) النجاة من النار.

(17) الشفاعة من أكرم المرسلين محمد (ﷺ).

(18) ملك الأبد في الجنة. (19) الرضوان الأكبر.

(20) التقرب من إله العالمين.

فليعلم العبد أن لا بد له في الجملة على أربعة: العلم، والعمل، والأخلاص والخوف؛ فيعلم أولاً الطريق وإلا فهو أعمي، ثم بالعلم وإلا فهو محجوب، ثم بالإخلاص. وبالإخلاص والخوف فليبدأ أولا الطريق وإلا فهو أعمى، ويخلص في عمله وإلا فهو مفتون، ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات إلى أن يجوز الأمان وإلا فهو مغرور.

فالعجب كل العجب، من أربعة:

الأول: غافل غير عالم. **الثاني:** عالم غير عامل.

الثالث: عامل غير مخلص. **الرابع:** مخلص غير خائف.

فجملة الأمر وتفضيله قاله رب العالمين في الكتاب العزيز:

﴿أفحسبتم أنا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون﴾.

فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين، نستغفره من أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا، ونستغيره من كل ما أوعيناه وأضمرناه من العلـــم بدين الله تعالى، ومن كل خطرة دعتنا إلى تصنُع أو تزين في كتاب سُــطر أو كـــلام عظمـــناه، أو علم أفدناه، ونسئله أن يجعلناً واياكم معشر الأخوان بما علمنا عاملين، ولوجهه به مريدين، وأن لا يجعله وبالاً علينا، وأن يجعله في ميزان صالح أعمالنا، إنه جواد كريم.

- 3 -

الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة

"تحليل وفهم وتبصير"

أولاً: نماذج من المخطوطة

كتاب درة الفاخرة في كشف علوم الآخرة
تأليف الإمام المحقق والحبر المدقق محي السنة والدين
والمجدد إمام الغزالي وهو حجة الإسلام
نفعنا ببركة علومه ورضي
عنه آمين

(ضمن مجموع)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي ٥ ا
وعليه التكلان الحمد لله الذي خص نفسه بالدوام
٥ وحكم على من سواه بالانصرام ٥ وجعل الموت
مآل اهل الكفر والاسلام ٥ وفصل بعلمه وبين
تفاصيل الاحكام ٥ وجعل حكم الاخرة خلفا لليوم
من الايام ٥ وانهج ذلك لمن شاء من خلقه اهل
الفضل والاكرام ٥ وصلى الله على سيدنا محمد رسول
الملك العلام ٥ وعلى اله واصحابه الذين اختصهم بجزيل
الانعام في دار السلام اما بعد فان الله
تعالى يقول كل نفس ذائقة الموت وثبت ذلك في كتابه
في ثلاث مواضع وانما اراد سبحانه وتعالى الموتات ا
لثلاثة

الثلاثة للعالمين فالمتحيز الى العالم الدنوي يموت و
المتحيز الى العالم الملكوتي يموت والمتحيز الى العالم الجبروتي
يموت فالاول آدم وذريته وجميع الحيوانات على ضروبها
الثلاث والملكوتي وهو الثاني هو اصناف الملائكة و
الجن واهل الجبروتي وهو الثالث هم المصطفون من
الملائكة قال الله تعالى الله يصطفي من الملائكة رسلا و
من الناس فهم الكروبيون وحملة العرش واصحاب
سرادقات الجلال كما وصفهم الله تعالى في كتابه واثنى عليهم
حيث قال ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا
يستحسرون يسبحون الليل والنهار وهم لا يفترون.
وهم اهل حضرة القدس المعنيون بقوله تعالى لاتخذناه
من لدنا ان كنا فاعلين وهم على هذا المكان من الله تعالى يموتون
وليس عاقبتهم من الموتة القربات فاقل ما اذكره لك عن الموت
الانبوي فاني اذ بيك لنفسي ما اوردته عليك واصفه لك تنتقل
عن الانتقال من حال الى حال ان كنت مصدقا بالله ورسوله
اليوم الاخر فاني ما اتيتك الا ببينة يشهد الله تعالى على ما اقول
ويصدق مقالتي القرآن وما صح من حديث رسول الله صلى الله

عليه وسلم رفع الي ... لما قبض الله تعالى القبضتين
الذين قبضهما عنده مما مسح على ظهر آدم عليه الصلوة و
السلام ما جمع في الجمع الاول انما جمع من شقه الايمن وكل ما
جمع في الجمع الاخر انما جمعه من شقه الشمال ثم بسط قبضته
سبحانه وتعالى فنظر اليهم آدم عليه السلام في راحتيه
الكريمتين وهم مثل الذر ثم قال الله تعالى هؤلاء الى الجنة
ولا ابالي وهؤلاء الى النار ولا ابالي فاهل الجنة يعملون
بعمل اهل الجنة واهل النار يعملون بعمل اهل النار فقال
آدم عليه السلام الصلوة و وما عمل اهل النار يا رب قال ثلاثة
شرك بي وتكذيب برسلي وعصيان كتابي في الامر و
النهي فقال آدم عليه الصلوة والسلام اشهدهم على انفسهم
عسى ان يعقلوا فاشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا
بلى شهدنا واشهد عليهم الملائكة وآدم انهم اقروا ه
بربوبيته ثم ردهم الى مكانهم وانما كانوا احياء انفسنا
من غير اجسام فلما ردهم الى صلب آدم عليه الصلوة والسلام
اماتهم وقبض ارواحهم وجعلها عنده في خزانة من خزائن
العرش فاذا سقطت النطفة المنفوسة اقرت في الرحم
حتى

حتى اذا ما تمت صورتها والنفس فيها ميتة فلجوهرها
منعت الجسد من النتن فاذا نفخ الله عز وجل فيها الروح
ردها الى سترها المقبوض منها الذي خبأه زمانا
في خزانة العرش فاضطرب المولود فكم من مولود
انّ في بطن امه فربما يسمعه امه او لم تسمعه فيهلك
موته ما بينه فتدبر ثم ان الله تعالى جلت قدرته اجل حكم ولحكمة
في هذه الدنيا ايام حيوته حتى استوفى اجله المحدود ورزقه
المعدود وآثاره المكتوبة فاذا دنت منيته وهي الموتة
الدنيوية جزئية غير كلية فحينئذ تنزل اربعة من
الملائكة ملك يجذب النفس من مقدمها اليمنى و
ملك يجذبها من مقدمها اليسرى وملك يجذبها
من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى وربما
كشف للميت عن الامر الملكوتي قبل ان يغرغر اي
اولئك الملائكة العمل على حقيقة عمله لا على ما يتجوز
اليه من عالمهم فان كان لسانه منطلقا حدث بوجودهم
وربما تخفى نفسه واعاد على نفسه الحديث بما راى وظن
ان ذلك من فعل الشيطان به فسكت حتى يعقل لسانه

من اهل العلم لتصنيفان الحوض يورد بعد جواز
الصراط الا السبقة الجسور وفيها هلاك اكثر
اكثر الخلق والسبعون الالف الذين يدخلون
الجنة بغير بلا حساب لا يرفع لهم ميزان ولا ياخذون
صحفا واعطي براءة مكتوبة فيها لا اله الا الله محمد
رسول الله هذه براءة فلان ابن فلان قد غفر الله له
وسعد سعادة لا شقاء بعدها ابدا فما من شي اسر
من ذلك اليوم وذلك المقام والرسل يومئذ على
المنابر والعلماء والاولياء على منابر صغار دونهم
ومنبر كل واحد على منهم على قدره والعالمون
العاملون على كراسي من نور والشهداء و
الصالحون كقراء القران والمؤذنين كلهم على كثبان
من المسك وهذه الطائفة العامة اصحاب الكراسي
الذين يطلبون الشفاعة من ادم ونوح على نبينا
وعليهما الصلوة والسلام حتى ينتهوا الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وكل من كان يأتي شخص يوم القيمة
وقد جاء في الخبر ان القران يأتي يوم القيمة في صورة

رجل

رجل حسن الخلق فيشفع ويشفع والاسلام مثله
فيختصم ويخاصم وقد ذكرنا حكاية الاسلام مع
مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب احياء علوم
الدين ويعلن مخاصمته فيتعلق به من يشاء الله فيهدي
بهم الى الجنة وكذلك يأتي الدنيا في صورة عجوزة
شمطاء اقبح ما تكون فيقال للناس تعرفون
هذه فيقولون نعوذ بالله من هذه فيقال لهم هذه
الدنيا التي كنتم تحاسدون عليها وتباغضون
فيها وتهاجرون لاجلها وكذلك تأتي الجنة كانها
عروس تزف والمؤمنون حولها قد احدقوا بها و
هي احسن ما تكون وتحوط بها كثبان المسك و
الكافور عليها نور تتعجب منها كل من في الموقف
حتى تدخل بهم الجنة فانظر كيف الى ورود القران و
الاسلام والجمعة اشخاصا وذلك في الدنيا لا يعقل لهم
عين بل هو متحيز الى عالم الملكوت وعلا فحقيقته
لا يعقل لخلق القران كما قالت الجهمية انه مخلوق
جهلا منهم حين رأى شخصا والاسلام ملكوتي

كالصلوة والصوم والصبر لا يحتج ولا يلتفت الى من
احتج في تلاشي الانفس بقوله صلى الله عليه وسلم يوم
يوم الخلق اللهم رب هذه الاجسام البالية و
الارواح الفانية والعظام النخرة وقوله صلى
الله عليه وسلم لو اتى اهل القبور ان الميت اذا راى
الحق يعلم فان لذلك كله مخرجا وكله عرسها عليه
السلام فيه هذ والكتاب وفصلنا في ذلك الامر
الاختصار لسلوك سبيل السنة ولا يلتفت الى
ليلاغ الطارية على الشرط المظهر من شياطين الانس
والجن نسأل الله سبحانه وتعالى السلامة والعصمة و
التوفيق من الخطا والخلل والزيادة والزلل انه
ولي الاجابة ومولى الامتنان بمنه وكرمه وجوده
الحمد لله على التمام وصلى الله على محمد المظلل بالغمام رسول
رب الملك العلام المفضل على الانبيا والرسل الكرام
كتفضيل يوم الجمعة على سائر الايام وعلى
اله واصحابه الكرام ما تطوت
الليالي والايام تمت
الدرة الفاخرة
في كشف علوم
الاخرة

ثانياً: مضمون ومفهوم النص

استهل الإمام الغزالي كتابه بمقدمة حَمِدَ فيها الله الذي خص نفسه بالدوام، وحكم على مَنْ سواه بالانصرام، وجعل الموت مآل أهل الكفر والإسلام، وفصّل بعلم وبين تفاصيل الأحكام، وجعل حكم الآخرة خلافاً للمعهود من الأيام، وانهج ذلك لمن شاء من خلقه لأهل الفضل والإكرام، وبعد الصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الملك العلام، وعلى آله وصحبه الذين اختصهم بجزيل الأنعام في دار السلام، قال: فإن الله تعالى يقول ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾، وثبت ذلك في كتابه في ثلاثة مواضع، وإنما أراد سبحانه وتعالى الموتات الثلاث: فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتي يموت، والمتحيز إلى العالم الجبروتي يموت.

فالأول آدم وذريته، وجميع الحيوانات، والثاني هو أصناف الملائكة والجن، وأهل الجبروت، والثالث هم المصطفون من الملائكة قال الله تعالى: ﴿**الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾ فهم الكَروبيون وحملة العرش، وأصحاب سرادقات الجلال، كما وصفهم الله تعالى في كتابه وأثني عليهم حيث قال: ﴿**ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون.. يسبحون الليل والنهار لا يفترون**﴾، وهم أهل حضرة القدس المعنيون بقوله تعالى: ﴿**لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين**﴾ وهم على هذا المكان من الله تعالى يموتون، وليس بمانعهم من الموت القربات.

فأول ما أذكره لك عن الموت الدنيوي، فألق أذنيك لتحصي ما أمليه عليك وأصفه لك، تنتقل عن الانفلات من حال إلى حال إن كنت مصدقاً بالله ورسوله واليوم الآخر، فإني ما آتيك إلا ببينة، يشهد الله تعالى على ما أقوله، ويصدق مقالتي القرآن، وما صح من حيث الرسول ﷺ.

ثانياً: مضمون ومفهوم النص

1- الموت الدنيوي

(فصل)

لما قبض الله تعالى القبضتين اللتين قبضهما عندما مسح على ظهر آدم عليه الصلاة والسلام، ما جمع فى الجمع الأول إنما جمعه من شقه الأيمن، وكل ما جمع فى الجمع الثاني إنما جمعه من شقه الأيسر، ثم بسط يديه سبحانه وتعالى، فنظر إلى بني آدم فى راحيته الكريمتين وهم شبه الذرّ، ثم قال تعالى: **هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فأهل الجنة يعملون بعمل أهل الجنة وأهل النار يعملون بعمل أهل النار.** فقال آدم عليه السلام: وما عمل أهل النار يا رب؟ قال: **ثلاثة: شرك بي، وتكذيب رسلي، وعصيان كتابي فى الأمر والنهي.** فقال آدم: إشهدهم على أنفسهم عسى أن يعقلوا، فأشهدهم على أنفسهم **ألست بربكم؟** قالوا: بلى شهدنا، وأشهد عليهم الملائكة وآدم أنهم أقرّوا بربوبيته، ثم ردّهم إلى أماكنهم.

فلما ردّهم إلى صلب آدم عليه السّلام أماتهم وقبض أرواحهم وجعلها عنده في خزانة من خزائن العرش فإذا سقطت النطفة المنفوسة أقّرت في الرحم، حتى إذا تمت صورتها، منعت الجسد من النتن، فإذا نفخ الله عز وجل فيها الروح، ردها إلى سّرها المقبوض منها، الذي خبأه زماناً فـي خزانة العرش فاضطرب المولود، فكم من أنّ في بطن أمه، فربما سمعته وربما لم تسمعه، فهذه موته ثانية.

ثم إن الله تعالى جلت قدرته أقامه في الدنيا أيام حياته، حتى استوفى أجله المحدود، ورزقه المقدور، وآثاره المكتوبة، فإذا دنت مَنِيَّتُه – وهى الموتة الدنيوية – جزئية غير كلية، فحينئذ ينزل به أربع من الملائكة: ملك

يجذب النفس من مقدمتها اليمني، وملك يجذبها من مقدمتها اليسرى، وملك يجذبهـــا من يده اليمني، وملك يجذبها من يده اليسرى، وربما كشف للميت عن الأمر الملكوتي قبل أن يغرغر، أي اطلاع الملائكة على حقيقة عمله، لاعلى ما يتخيرون إليه من عالمهم، فإن كان لسانه منطلقاً حدّث بوجودهم، وربمـــا اســـتخف نفسه الحديث بما رأي، فظن أن ذلك من فعل الشيطان، فســكت حـــتى يعقد لسانه. وهم يجذبونها من أطراف البنان، ومن رؤوس الأصابع والنفس تنسلُّ انسلال الماء من السقاء.

والفاجر تنسل روحه كالسفّود من الصوف المبلول، هكذا حكى عن صـــاحب الشريعة ﷺ، والميت يظن أن نفسه قد ملئت شوكاً، وكأنما نفسه تخرج من ثقب إبرة، وكأن السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما، ولهذا قال النبي ﷺ **﴿سكرة من سكرات الموت أمّر من ثلاثمائة ضربة بالسيف﴾** وعندها يرشح جبينه، وتَزْوَرّ عيناه، وترتفع أضلاعه، ويعلو نَفَسُه، ويصفّر لونه.

فللميـــت من شحور النفس ما يغير وجهه عند الموت لعظم ما يلقى مـــن المشقّة، فإذا احتضرت نفسه إلى القلب خرس لسانه عن النطق، وما أحـــد يقدر على النطق والنفس مجموعة في صدره لسّرين، أحدهما: ضيق الصـــدر بالـــنفس المجتمعة فيه، ولذلك فالإنسان إذا أصبته في صدره بقي مدهوشـــاً، لا يقـــدر على الكلام، وكل مطعون يطعن بصوت إلا مطعون الصدر، فإنه يخّر ميتاً من غير تصويت.

وأما السرّ الآخر؛ فهو حركة النفس المندفعة من الحرارة الغريزية، فتصـــير نفســـه متغـــيرة لحالين: حال الارتفاع، وحال البرودة، لأنه فقد الحـــرارة. فعـــند هذيـــن الحاليـــن تختلف أحوال الموتى فمنهم من يطعنه

الملائكـــة بحـــرية مســـمومة، قد سقيت سماً من نارٍ، فتخر النفس وتقبض جارحـــة، فيأخذها الملك وهى ترعَدُ، أشبه شئ بالزئبق، ومن الموتى من تجـــذب نفســـه رويداً حتى تنحصر فى الحنجرة، إلا شعبة متصلة بالقلب، فتطعـــنها الملائكة بتلك الحربة الموصوفة، فإن النفس لا تفارق القلب حتى تطعـــن، وســـرّ تلك الحربة أنها سُمّت في بحر الموت، فإذا وضعت على القلب سار سرّها في سائر الجسد كالسم الناقع.

وعـــند اســـتمرار النفس في الترقّي والارتفاع تعرض عليها الفتن، وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان، واستعملهم عليـــه، ووكّلهم به، فيأتون المرء وهو في تلك الحالة، فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحياء، والـــمـــوتى الباعثين له على النصح في دار الدنيا، كالأب والأخ والأم والأخـــت والصديق الحميم، فيقولون له: أنت تموت يا فلان، نحن قد ســـبقناك إلـــى هـــذا الدين، فمت يهودياً فهو الدين المقبول عند الله تعالى، ويـــزيـــنـــونـــه له، فإذا انصرفوا عنه وأبي، جاءه آخرون وقالوا له: مت نصـــرانياً، فإنه دين المسيح الذي نسخ دين موسى عليهما الصلاة والسلام، ويذكرون له عقائد كل ملّة.

فعند ذلك يزيغ الله من شاء زيغه، وهو معنى قوله تعالى: **﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب﴾**. أي لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل ذلك زماناً، فإذا أراد الله تعالى بعـــبده هدايـــة وتثبيتاً جاءته من رحمته من يقول: يا فلان أما تعرفني؟ أنا جبريل، وهؤلاء أعداؤك من الشياطين، فمت على الملّة الحنفية، والشريعة المحمدية.

فما شئ أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك، وهو قوله تعالى: ﴿**وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**﴾. ثم تفيض روحه على أعين اللطفة.

ومن الناس من يقبض وهو قائم يصلي، أو نائم، أو مارّ في بعض أشغاله، أو منعكف على الهوى، وهوى اليقظة، فتقبض روحه مرة واحدة.

ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كُشِف له عن أهله السابقين، وحدّق به جيران من الموتى، وحتى يكون له خوار (صوت البقرة) يسمعه كل شئ إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق.

والسمع هو آخر ما يُفقد، لأن الروح إذا فارقت القلب، فإن البصر يُسلّ معها، وأما السمع فلا يفقد حتى تقبض النفس، ولهذا قال رسول ﷺ: ﴿**لقنوا موتاكم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**﴾، ونهى عن الإكثار عليهم منها، لما يجدونه من الهول الأعظم، والكرب الأقصم.

فإذا نظرت إلى الميت وقد سال لعابه، وتقلّصت شفتاه، وأسودّ وجهه، وازرّقت عيناه، فاعلم أنه شقّي، فكُشف له حقيقة شقاوته في الآخرة. وإذا رأيت الميت جاف الفم منطلق الوجه كأنه يضحك، مسكرة عيناه، فاعلم أنه بُشّر برحمة الله، وقد كُشف له حقيقة كرامته.

فإذا قبض الملك النفس السعيدة: تناولها ملكان حسنا الوجه، عليهما ثياب حسنة، فيلفّانها في حرير من حرير الجنة، وهي على قدر النحلة من شخص إنساني، ما فُقد من عقله، ولا من العلم المكتسب في دار الدنيا شيئاً، فيعرجا بها في الهواء، فلا يزال يمرّ بالأمم السابقة، والقرون الخالية، كأمثال الجراد المنتشر، حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول أنا صلصائيل ومعي فلان، كانت عقيدته صحيحة

غـــير شـــاكّ ولا مرتاب؛ ثم ينتهي إلى السماء الثانية فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول مقالته الأولى، فيقولون: أهلا وسهلا بفلان فقد كان محافظاً على صلواته: بجميع فرائضها وسننها، ثم ينتهي إلى السماء الثالثة فــيــقــرع الأمــيــن الــبــاب، فيقال له من أنت؟ فيقول مقالته الأولى، فيقولون: مرحباً بفلان، كان يراعي حق الله تعالى في ماله، ولا يمسك منه شيئاً، ثم يمرّ حتى ينتهي إلى الــسمـــاء الرابعة، فيقال له من أنت؟ فيقول كعادته فيقال: أهلا وسهلا بفلان، كان يصوم ويحسن الصوم، ويحفظه عن أدران الرفـــث وحـــرام الطعـــام، ثـــم ينتهي إلى السماء الخامسة فيـــقرع الأمـــين الـــباب، فيقال له من أنت فيقول كعادته، فيقال: مرحباً بفلان أدى حجة الله تعالى الواجبة عليه من غير رياء ولا سمعة، ثم ينتهي إلى السماء السادسة فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت فيقول كدأبه، فيقال: مرحباً بالرجل الصالح، والنفس الطيبة، كـــان كـــثيـــر البّر بالوالدين، ثم يفتح له، فينتهي إلى السماء السابعة، فيقـــرع الأمين فيقال له من أنت؟ فيقول كدأبه، فيقال: مرحباً فلان كان كثير الاستغفار بالأسحار، وكان يتصدق في السّر والعلانية ويتكفل الأيتام، ثـــم يـــفتح له حتى ينتهي إلى سرادقات الجلال، فـــيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول كدأبه، فيقال له أهلا وسهلاً بالعـــبد الصـــالح والنفس الطيبة، كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويكـــرم المساكين؛ ويمرّ بملأ الملائكة فيبشرونه بالخير ويصافحونه، حتى ينتهي إلى سدرة المنتهى، فـــيـــقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت فيقول كدأبه، فيقال: أهلاً وسهلاً بفلان كان عمله صالحاً لوجه الله تعالى، ثم يفتح لـــه فيمر في بحر من نار، ثم في بحر من نور، ثم في بحر من ظلمة، ثم في بحر من ماء، ثم في بحر من برد، ثم بحر من ثلج طول كل بحر منها

ثمـــانون ألف سرادق، فيها ثمانون ألف شرفة، على كل شرفة ثمانون ألف قمـــر تهلل الله تعالى وتسبحه وتقدسه، لو برز منها قمر واحد إلى السماء الدنيا لعُبِد من دون الله عز وجل، ولأحرقها من نوره.

وهــنا ينادي مناد من وراء تلك الحجب من الحضرة القدسية: من هــذه النفس التي جئتم بها؟ فيقال: فلان بن فلان، فيقول الجليل جل جلاله: قــربوه، **فــنعم العبد كنت يا عبدي**، فإذا أوقفه بين يديه الكريمتين أخجله بــبعض اللوم والمعاتبة حتى يظن أنه هلك، ثم يعفو عنه سبحانه وتعالى، كما روي عن يحيي بن أكثم القاضي وقد رؤى في المنام فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ فقال: **أوقفنى** بين يديه الكريمتين ثم قال لي: **يا شيخ السوء، فعلت كــذا وكــذا**، فقلت: يا رب فابهذا حدثت عنك، قال: **فبماذا حدثت عني يا يحيي؟**، فقلت إلهي وسيدي، حدثني معمر عن الزهري عن ابن شهاب عن عــروة عــن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عــنك تباركت وتعاليت أنك قلت: **إني لاستحي أن أعذب شيبة شابت في الإسلام**. فقال: **يا يحيي صدقت وصدق معمر وصدق الزهري وصدق ابن شهاب وصدق عروة وصدقت عائشة وصدق نبيي وصدق جبريل وصدقت أنا اذهب وقد غفرت لك.**

ومن الناس من إذ انتهي إلى الكرسي وسمع النداء ردّوه، ومنهم من يــرد مــن الحجب، وإنما يصل إلى الله تعالى عارفوه، ولا يقف بين يديه الكريمتين إلا أهل المقام الرابع فصاعداً.

وأمـــا الفاجـــر فتؤخذ نفسه عنفاً، فإذا وجهه كآكل الحنظلة، والمَلَك يقول: أخرجي أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث، فإذا له خوار كخوار الحمـــير، فإذا قبضها الملك ناولها لزبانية قباح الوجوه، سود الثياب، منتني

الريح، بأيديهم ستوج من شعر فيلقونها فيها، فتستحيل نفساً إنسانياً على قدر الجــرادة، فإن الكافر أعظم جرماً من المؤمن في الجسم في الآخرة؛ وفى الصـــحيح "**أن ضرس الكافر في النار مثل جبل أحد**"، قال فيعرج به حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول: أنا إذ قائيل الملك الموكل بزبانية العذاب، فيقال من معك، فيقول: فلان بن فلان، بأقــبح أسمائه وأبغضها إليه في دار الدنيا، فيقال له: لا أهلاً ولا ســهلاً، فـــلا يـفـتـــح له باب السماء، ولا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخـياط، فإذا سمع الأمين هذه المقالة طرحه من يده، فتهوى به الريح في مكــان سحيق، أي بعيد، وهو معني قوله تعالى: ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خـــرّ مـــن الســـماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق**﴾ فيقول: تباً لك من خزي حل بك، فإذا انتهي إلى الأرض ابتدرته الزبانية، وسارت به إلى سجّين، وهي صخرة عظيمة تحت الأرض السابعة، تأوي إليها أراوح الفجار!

وأمـــا النصـــارى واليهود فيردّون من الكرسي، هذا من كان منهم على شريعة، ويشاهد غسله ودفنه، ويعاد إلى قبره، وأما المشرك فلا يشاهد شـــيئاً مـــن ذلـــك لأنــــه قد هوى به، وأما المنافق فمثل الثاني يردّ ممقوتاً مطروداً إلى حفرته.

وأمـــا المقصّـــرون من المؤمنين، فتختلف أحوالهم، فمنهم من ترده صـــلاته لأن العبد إذا فقر في صلاته فإنها تُلف كما يَلف الثوب الخَلِق، ثم يضرب بها وجهه، وهي تقول ضيعك الله كما ضيعتني.

ومنهم من تردّه زكاته، لأنه إنما زكى ليقال: فلان يتصدق، وربما وضـــعها عـــند النِساء. ومنهم من يردّه صومه، لأنه صام من الطعام ولم

يصـــم عن الكلام الرفث، فيخرج عنه الشهر وقد بهرجه، ومن الناس من يردّه حجه، لأنه إما حج ليقال: فلان حج، أو يكون إنما حج بمال خبيث أي مـــال حــرام، ومن الناس من يردّه عقوق الوالدين، وسائر أعمال البّر لا يعلمها إلا العلماء بأسرار المعاملات، وتخليص العمل للملك الوهاب، فكل هــذه المعاني جاءت بها الآثار، كالخبر الذي رواه أنس بن مالك عن معاذ بــن جبل في ردّ الأعمال وغيره، وإنما أردت تقريب الأمر، وأهل الشرع يعرفون صحة ذلك كما يعرفون أبنائهم.

فــإذا ردّت النفس إلى الجسد ووجدته قد أخِذَ في غسله، فتقعد عند رأسه حتى يغسل، فيكشف الله عن بصيرة من يشاء من الصالحين فيعرفها عن صورتها الدنيوية. وقد حدّث إنسان عن نفسه أنه غسّل ابناً له فإذا هو بشـــخص قاعد عند رأسه، فأدركه الوهم، فترك الجهة التي رأى فيها ذلك الشخص، وتحول إلى الجهة الأخرى، فلم يزل مكانه حتى أدرج الميت في أكفانـــه، فعـــاد ذلك الشخص فشاهده وهو على النعش. وقد روى عن غير واحد من الصالحين أنه نادى وهو على النعش أنا فلان بن فلان أنا الروح، فانـــتفض الكفن من تلقاء ذلك مرتين أو ثلاث. ويكشف الله عن بصيرة من يشاء من خلقه.

فـــإذا أدرج الميـــت صارت خارج الصدور ملتصقة بالصدر، ولها خوار وعجيج، وهي تقول: أسرعوا بي إلى رحمة ربي، لو علمتم ما أنتم حاملوني إليه. وإن كان يبشر بالشقاوة يقول رويداً رويداً، إلى أين تسرعون بي وإلى أي عذاب؟ لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه.

ولهذا كان الرسول ﷺ لا تمّر به جنازة إلا قام لها تعظيماً، فقيل يا رسـول الله إنها ليهودي، فقال: **أليسـت بنفس؟**. وإنما كان يفعل ذلك لأنه يُكشف له من أسرار الملكوت.

فـإذا أُدخل الميت فى قبره، وهيل عليه التراب ناداه القبر: كم كنت تفـرح علـى ظهـري، واليوم تحزن في بطني، وكنت تأكل الألوان على ظهـري، والـيوم تـأكلك الديدان فى بطني، ويكثر عليه من هذه الألفاظ الموبخة حتى يستوي عليه التراب، ثم يناديه ملك يقال له دومان، وقد روي ابـن مسـعود رضي الله عنه عندما سئل رسول الله ﷺ: ما أول ما يلقى الميـت إذا أدخـل في قبره؟ قال: **يا ابن مسعود لقد سألتني عن شئ ما سألني أحد غيرك، فأول ما يناد به ملك اسمه دومان، يجلس خلال المقابر ويقـول: يا عبد الله اكتب عملك، فيقول: ليس معي دواة ولا قرطاس ولا قلـم، فـيقول: كفنك قرطاسك، ومدادك ريقك، وقلمك إصبعك، فيقطع من كفـنه قطعـة، ثم يجعل العبد يكتب، وإن كان غير كاتب في الدنيا، فيذكر حتى حسناته وسيئاته كيوم واحد، ثم يطوي الملك هذه الرقعة ويعلقها في عنقه.** ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾**.

فـإذا فـرغ مـن ذلـك دخل عليه ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنـيابهما، لهمـا شـعور مسدولة يجرانها على الأرض، كلامهما كالرعد القاصـف، وأعينهما كالبرق الخاطف، ونفسهما كالريح العاصف، بيد كل واحد منهما مقمعة من حديد، لو اجتمع عليها الثقلان ما رفعاها، لو ضُرب بهـا أعظم جبل لَدَكّتَه. فإذا رأتهما النفس ارتعدت وولّت هاربة، فتدخل فى مـنخر الميت فيحيا الميت من صدره ويكون كهيئته عند الغرغرة، لا يقدر

على الحركة غير أنه يسمع ويبصر: فيسألانه بعنف وجفاء، وقد صار له التراب كالماء، انفسخ فيه، ووجد فيه فرجة، فيقولان له: مَنّ ربك، وما دينك، وما إمامك، ومن نبيك، وما قبلتك؟، فمن وفقه الله تعالى وثبته بالقول الثابت قال: ومَنّ وكلكما على، ومن أرسلكما إليّ؟، وهذا لا يقوله إلا العلماء الأخيار، فيقول أحدهما للآخر: صدق، فقد كُفِيَ شرًنا، ثم يضربان عليه القبر كالقمة العظيمة، ويفتحان له بابان إلى الجنة من تلقاء عينيه، ثم يفرشان له من حريرها وريحانها، ويدخلون عليه من نسيمها وريحانها، ويأتيه عمله في صورة أحب الأشخاص إليه، يؤنسه ويحدثه ويملأ قبره نوراً، ولا يزال في فرح وسرور ما بقيت الدنيا، حتى تقوم الساعة، فليس شئ أحبّ إليه من قيام الساعة.

ودونها في المنزلة: المؤمن العامل الخير وليس معه حظ من العلم، ولا من أسرار الملكوت، يلج عليه عمله في أحسن صورة، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول له: أما تعرفني، فيقول له: من أنت: الذي مَنّ الله عليّ بك في غربتي؟ فيقول: أنا عملك الصالح فلا تحزن ولا توجل، فعما قليل يلج عليك منكر ونكير، فلا تدهش، ثم يلقنه حجته، فبينما هو كذلك إذ خلا عليه كما تقدم ذكرهما، فينهرانه ويقعدانه مستنداً، ويقولان: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟، فيسبق إلى القول الأول، فيقول الله ربي، ومحمد نبيي، والقرآن إمامي، والكعبة قبلتي، وإبراهيم أبي، وملته ملتي غير مستعجم، فيقولان: صدقت، ويفعلان به كما يفعلان بالأول، إلا أنهما يفتحان له باباً إلى النار عن يساره، فينظر إلى حيّاتها وعقاربها وسلاسلها وزقومها، فيفزع فيقولان: ما عليك من سوء هذا موضعك من النار قد بدّله الله تعالى

بموضعك هذا من الجنة، فنم سعيداً، ثم يغلقان عليه باب النار، فلا يدري ما مرّ من الشهور والدهور والأعوام.

ومن الناس من يتعجم في المسألة، فإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول الله ربي، وأخذ غيرها من الألفاظ، فيضربانه ضربة يُشعل منها قبره ناراً، ثم يطفأ عنه أياماً، ثم يُشعل منها قبره وهكذا دأبه ما بقيت الدنيا.

ومن الناس من يعسر عليه أن يقول محمداً نبييِّ، لأنه كان ناسياً لسنته، ومن الناس من يعسر عليه أن يقول الإسلام ديني لشكٍّ وقع عنده فكان يتوهمه، أو فتنة تقع به عند الموت، فيضربانه ضربة واحدة يشعل منها قبره ناراً كالأول.

ومن الناس من يعسر عليه أن يقول القرآن إمامي، لأنه كان يتلوه ولا يتعظ به، ولا يعمل بأوامره ولا ينتهي بنواهيه، فيفعل به مَا فُعل بالأوَلَيْن.

ومن الناس من يستحيل عمله كلباً يُعَذّب به في قبره على قدر جرمه. ومن الناس من يعسر عليه أن يقول الكعبة قبلتي، لأنه كان كثير التحرّف في صلاته، واختلال في ركوعه وسجوده، ويكفيك ما روي في فضائلها أن الله تعالى لا يقبل صلاة ساهٍ، ولا ممن عليه ثوب حرام. ومن الناس من يعسر عليه أن يقول إبراهيم أبي، لأنه سمع كلاماً أوهمه أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، فهو شاكٍ مرتاب، فيفعل به كما فعل بالأخيرين.

وأما الفاجر فيقولان له من ربك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا عرفت، فيضربانه بتلك المقامع الحديد حتى يتجلجل في الأرض السابعة، ثم تنفضه في الأرض السابعة فى قبره، فيضربانه سبع مرات، ثم

تختلف أحوالهم فمنهم من يستحيل عمله كلباً ينهشه حتى تقوم الساعة، وهم الخوارج. ومنهم من يستحيل عمله خنزيراً يعذب به في قبره وهم المرتابون. وهي أحوال تقري أهل القبور، وإنما آثرنا الاختصار في ذكرها.

والأصل أن الرجل يعذب في قبره بالشئ الذي كان يخافه في الدنيا، فمن الناس من يخاف الكلب أكثر من الأسد الخيِّف ومنهم من يخاف الحية، ومنهم من يخاف الجانّ، فطبائع الإنسان مختلفة، فنسأل الله السلامة والغفران قبل الندامة.

(فصل)

وأمـــا أهــل القبور فعلى أربعة أنواع، فمنهم القاعد على منكبيه حتى تُسل العيـــن وتتورم الجبهة، ويعود الجسم تراباً، ثم لا يزال بعد ذلك طوافاً في الملكـــوت دون سماء الدنيا. ومنهم من يرسل الله عليه نعسة، فلا يدري ما فعـــل الله بـــه حتى يتنبه من النفخة الأولى، ومن مَنْ لا يقوم على قبره إلاّ شهرين أو ثلاثة، ثم تركب نفسه على ظهر طير تهوي به إلى الجنة، وهو الحديـــث الصحيح حيث قال رسول الله ﷺ: ﴿**نسمة المؤمن وطائره تعلق فـــي شجر الجنة**﴾ وروي قناديل معلقة بالعرش، وكذا سئل رسول الله ﷺ: عن أرواح الشهداء، فقال: ﴿**في حواصل طير خُدر يعلق في شجر الجنة**﴾. ومن الناس من إذا بارت عيناه عرج إلى الصور، فـــلا يـــزال ملازماً له حتى ينفخ فيه.

والنوع الرابع هم الأنبياء والأولياء، وهم الأخيار، فمنهم من اختار الأرض أن يكون فيها طوافاً حتى تقوم الساعة، وكثيراً ما يُري في النوم، وأظن الصديق والفارق منـــهـــم، ورســـول الله ﷺ له الخيار في الطواف والعوالم الثلاث.

ومنهم من اختار السماء السابعة كإبراهيم عليه السلام، وفي الحديث أنه مرّ عليه ﷺ، وهو مستند ظهره إلى البيت المعمور، وقد أحدق به أولاد المســـلمين. وعيسى عليه السلام في السماء الخامسة، وفي كل سماء رسل وأنبياء لا يخرجون منها، ولا يرجون، حتـــى الصعقة، وليس منهم من له الخـــيار إلا: الخليل والكليم والصفيّ والحبيب، هؤلاء ينتهون حيث شاءوا عن العالمين.

وبعد الحياة الدنيوية حياة ثالثة، والحياة الأولى حياة **﴿أشهدهم على أنفســـهم ألســـت بـــربكم قالوا بلى شهدنا﴾**، ولا يعتدّ بالحياة الدنيا، فإنها مسخرة بالتنعّم، وقد روي عنه ﷺ قال: **﴿الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا﴾**.

فهـــذه أحـــوال الموتـــى إذا بـــادت أعينهم، فمنهم المستقر، ومنهم المضـــروب عليه، ومنهم المعذب، ومنهم المنعّم، والدليل على صحة ذلك قولـــه تعالى: **﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾**.

2- حياة البرزخ

فـــإذا أراد الله سبحانه وتعالى بقيام الساعة دون النفخ في الصور، فـــإذا الجـــبال تطاير وتسير مثل السحاب، وإذ البحار قد تفجر بعضها في بعض، وتكورت الشمس فعادت سوداء مربدّة، وسجّرت البحار حتى امتلأ عالم الهواء ماء، ودخل العالم بعضه في بعض، وانكدرت النجوم، وعادت الســـماء كالدهان الورد، تدور كدوران الرحى، والأرض قد زلزلت زلزالاً شديداً، فتنقبض تارة وتنبسط تارة كالأديم، حتى أن الله تبارك وتعالى يأمر بخلـــع الأفلاك؟، فلا يبقى في الأرضين السبع ولا في السموات السبع ولا فـــي الكرســـي ملك إلا وقد ذهبت روحه، ولا روح إلا وقد ذهب إدراكه وحياته، وهذا فى النفخة الأولى، وقد خلت الأرض من عمارها، والسموات مـــن سكانها على ضروب الموجودين، ثم إن الله تعالى يتجلى في الغمام، فيقـــبض السموات السبع في يمينه، والأرضين السبع في الأخرى، ثم يقول عـــز وجـــل: **يـــا دنـــيا الدنية أين عمارك، أين سكانك؟ أين أربابك، أين أصحابك الذين فتنتهم ببهجتك وشغلتهم عن آخرهم بزهرتك**، ثم يثني على نفســـه بمـــا شـــاء، ويفتخر بالبقاء المستمر، والعز الدائم، والملك الباقي، والقـــدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، ثم يقول: **لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحـــد، فيجيب نفسه بأن يقول: لله الواحد القهار**، ثم يفعل فعلاً أعظم من الأول، وهو أن يأخذ السموات على إصبع والأرضين على إصبع والبحار علـــى إصـــبع والأشجار على إصبع، ثم يهزها ويقول سبحانه وتعالى: **أنا الملـــك وأنا الديّان، أين الذين عبدوا غيري من دونـي، وأشركوا بي، لمن الملـــك الـــيوم إلا لي؟** سبحانه وتعالى، ثم يمكث كذلك ما شاء، وليس من العـــرش إلا القمقام تلوح، وقد ضرب الله تعالى على آذان الحور والولدان

في الجنة، ثم يكشف الله تعالى عن بيت في سقر، فيخرج منها لهب النار، فتشـــعل في أربعة عشر بحراً، كما تشتعل النار في الصوف المنقوش، فما تـــدع منها قطرة واحدة، وتدع الأرضين حمأة سوداء، والسماء كأنها عكر الزيـــت والـــنحاس المذاب، فإذا همّ اللهب أن يتعلق بعنان الماء، زجر الله تعالى النار زجرة واحدة، فخمسون ألف عام لا يرتفع لها لهب، ثم يفتح الله تعـــالى خزانة من خزائن العرش، فيها بحر الموت، فتمطر الأرض مطراً كمنـــيّ الـــرجل فتلقى الأرض وهى عطشانة هامدة، فتحيا الأرض وتهتّز بأمـــر الله تعـــالى، فلا يزال المطر عليها حتى يعمها، ويكون الماء عليها أربعيـــن ذراعـــاً، فـــإذا الأجســـام تنبت من العصعص، وفي الحديث أن **﴿الإنســـان يبدأ من عجب الذنب﴾**، وفي رواية: **﴿يبلى إلاّ العجب منه بدأ ومـــنه يعود﴾** وهو عظم على قدر الحمصة، قال ثم إن الأجسام ليس فيها مـــخ، فمنه تنبت الأجسام جميعها في مقابرها كما ينبتِ البقل، حتى يشتبك بعضـــها ببعض فإذا رأس هذا عند منكب هذا، وفخذ هذا عند عجب هذا، لكثرة الخلائق، وهو معنى قوله تعالى: **﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾**.

فإذا تمت النشأة على حسبها، فالصبى صبى، والشيخ شيخ، والكهل كهل، والشاب شاب، أمر الجليل جل جلاله أن تهب الريح من تحت العرش فيها ناراً لطيفة، فتنشف ذلك الماء عن الأرض وتبقى الأرض بارزة ليس فيها عوج ولا أمت، وقد عادت الجبال فيها رمالاً وهى الكثيب المهيل.

ثم يجئ سبحانه وتعالى عبده إسرافيل، فينفخ في الصور من صخرة بيت المقدس، والصور قرن من نور له أربع عشرة دائرة، الدائرة الواحدة كاســـتدارة الســـموات والأرض، فـــيها ثقوب بعدد أرواح البريّة، فتخرج

الأرواح ولها دويّ كدويّ النحل، فتملأ ما بين الخافقين، ثم تذهب كل نسمة إلى جثتها، فسبحان من ملأهما حتى الوحوش والطيور وكل ذي روح، فإذا هم كذلك كما قال سبحانه وتعالى: **﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾**، والزجرة العظيمة كما قال الله تعالى: **﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾**، والساهرة هي الأرض السفلي، إلاّ أنهم فتحوا أبصارهم عند قيامهم، فنظروا إلى الجبال منسوخة، والبحار منزوفة، والأرض لا عوج فيها، ولا أمتاً، والأمت هو الشئ المرتفع كالكثيب والربوة، والعوج الأرض المنخفضة كالوهرة، وصارت مستوية كالصخرة القاعدة، فتعجبوا لما نظروا إلى الساهرة، وقعد كل واحد منهم مسنداً إليها، قال ﷺ: **يحشر الميت في ثيابه.** وهو أليق ما رويناه، وروي عن بعضهم: على القبر عرياناً منتظراً متعجباً متفكراً متغيراً، كما ورد في الخبر "حفاة عراة عزلاً (أي غير مختونين) إلا قوماً ماتوا في الغربة مؤمنين لم يكفنوا، فإنهم يحشرون وقد كُسُوا ثياباً من الجنة، وقوم أيضاً من أمة محمد ﷺ متخذون السنّة ما جفوا عنها بسم الخياط، وقد روي: **﴿بالغوا في أكفان موتاكم، فإن أمتي تحشر في أكفانها، وسائر الأمم عراة﴾** رواه أبو سفيان.

فإذا استوى كل إنسان جالساً على قبره، فمنهم العريان، ومنهم المكسُو، الأسود والأبيض، ومنهم من يكون نوره كالمصباح الضعيف، ومنهم من يكون له نور كالشمس، إلا أن كل واحد منهم لا يزال مطرقاً برأسه، لا يدري ما يُصنع به ألف عام، حتى تظهر من المغرب نار لها دويّ تساق، فتدهش لها رءوس الخليقة إنساً وجناً، ووحشاً وطيراً فيأتي كل واحد من الخلق عمله فيقول له: قم وانتهض إلى المحشر، فمن كان عمله جيداً شخص له عمله بغلاً يسير به، ومنهم من يشخص له عمله كبشاً تارة

يحملـــه وتارة يلقيه، ومنهم من يشخص له عمله حماراً، ويجعل لكل واحد مـــنهم نـــوراً يســـعى شعاعه بين يديه في الظلمات وعن يمينه، وهو قوله تعالى: ﴿**يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم**﴾، وليس عن شمائلهم نور، بل ظلمـــة حالكـــة، لا يســـتطيع البصـــر نفاذها، يجتاز الكافر فيها، ويتردد المرتابون، والمؤمنون ينظرون إلى قوة ظلامها، وشدة سوادها، ويحمدون الله تعالى على ما أعطاهم من النور المهتدي به في تلك الظلمة.

ويســـعى بين أيديهم لأن الله تعالى يكشف لعبده المؤمن المتنعم عن أحوال الشقي المعذب، يستبين به سبيل الفائدة، كما فعل لأهل الجنة، وبأهل الـــنار يقول: ﴿**فاطلع فرآه في سواء الجحيم**﴾، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وإذا صـــرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**﴾، لأن أربعاً لا يعرف قدرهم إلا أربع: لا يعرف قدر الحياة الدنيا إلا الموتـــى، ولا يعـــرف قدر الصحة إلا أصحاب السقم، ولا يعرف قدر الشباب إلا أهل الهرم، ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء.

ومـــن الناس من يسعى على قدميه، وعلى أطراف بنانه، وله نور يطفـــأ مرة ويشتعل مرة أخرى، إنما نورهم عند البعث على قدر إيمانهم، وســـرعة خطواتهـــم على قدر أعمالهم، وسئل الرسول كيف يحشر الناس، قـــال: "**اثنان على بعير، وخمسة على بعير، وعشرة**"، ومعنى هذا الحديث والله أعلـــم أن قومـــا يأتلفون في الإسلام فيرحمهم الله تعالى، ويخلق من أعمـــالهم بعيراً يركبون عليه، وهذا من ضعف أعمالهم إلا أنهم يشتركون فيه، فهم كقوم خرجوا في سفر بعيد وليس مع أحد منهم ما يشتري به مطية توصـــله، فاشترك في ثمنها رجلان منهم أو ثلاثة، فاشتروا مطية يتعاقبون علـــيها فـــي الطريق، ويبلغ بعيراً مع عشرة، وهذا العجز في العمل معناه

قبض اليد في المال، أي منع التصدق فيه، ومع ذلك يـحـكم له بالسلامة، **فاعمل هداك الله عملاً يكون لك بعيراً خالصاً من الشركة.**

واعلـم أن هذا المتجر الرابح للمتقين الوافدين كما قال الله تعالى: **﴿يـوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾**. وفي غريب الرواية أن رسول الله قـال يوماً لأصحابه: **﴿كان رجل في بني إسرائيل كثيراً ما يفعل الخير حـتى إنـه ليحشر فيكم، قالوا: فما كان يصنع، قال: ورث من أبيه مالاً كثـيراً، فاشـترى به بستاناً محبة للمساكين، وقال: هذا بستاني عند الله تعالى، وفرّق دنانير عديدة على المساكين، وقال: بهذا أشتري جارية عند الله تعـالى وعبـيداً، واعـتق رقاباً كثيرة، وقال هؤلاء خَدَمي في الدار الآخـرة، والتفـت يوماً إلى ضرير البصر، فرآه تارة يمشى وتارة يكبو فـابـتـاع له مطية يسير عليها وقال هذه مطيتي عند الله تعالى أركبها، والـذي نفسي بيده فكأني أنظر وقد جئ بها مسرجة ملجمة يركبها تسير به إلى الموقف﴾.**

وقـيل في تفسير قوله تعالى: **﴿أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمّـن يمـش سوياً على صراط مستقيم﴾**، إنه مَثل ضربه الله تعالى بيوم القـيامة فـي حشـر المؤمنيـن والكافرين، كما قال الله تعالى: **﴿ونسوق المجرميـن إلـى جهـنم وردا﴾**، أي مشاة على وجههم عطاشا، لأن الذي أمشـاهم فـي الدنـيا على أقدامهم قادر على أن يمشيهم يوم القيامة على وجوههم. هذا قول بعض المفسرين، وليس الأمر كما حكاه وإنما السر في ذلـك – تـارة يمشي وتارة يكبو على وجهه – والذى يأوله بعيد لأن الله تعالى ذكر الأرجل في قوله تعالى: **﴿وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾**، وقوله تعالى: **﴿عمياً وبكماً وصماً﴾** عن المقعد الذي أراده.

والمــنع مــن الــنظر إلى الكريم، مع أن نور الله تعالى تشرق به الأرض البيضـــاء، أنهم قد ضرب على أبصارهم غشاوة فلا ينظرون إلى شـــئ مــن ذلك، وضرب على آذانهم فلا يسمعون كلامه تعالى والملائكة يــنادون **﴿لا خــوف علــيكم الــيوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكــم تحبرون﴾**، وكذا مُنعوا الكلام كأنهم بكم، وتفسير قوله تعالى: **﴿هــذا يــوم لا يــنطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾**، والممنوع من الشئ موصوف بالضعف عن قدرته.

ومن الناس من يحشر بصفته الدنيوية، قوم مفتنون بالعود منعكفون علــيه دهــرهم، فعــند قيام أحدهم من قبره، يأخذه بيمنه فيطرحه من يده، فيقول: سحقاً لك شغلتني عن ذكر الله، فيعود إليه ويقول: أنا صاحبك حتى يحكــم الله بينــنا وهــو خير الحاكمين، وكذلك يبعث السكران سكراناً يوم القــيامة، والزامر زامراً، وكل واحد على الحال الذى صدّه عن سبيل الله تعــالى، وفي مثله الحديث الذي ورد في الصحيح **أن شارب الخمر يحشر والكــوز معلــق فــى عــنقه، والقدح بيده، وهو أنتن من كل جيفة على الأرض، يلعــنه كل من يرآه ويمرّ به، والظالم يحشر بظلامته. والمقتول فــي ســبيل الله يــأتى يوم القيامة وجرحه يثخب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، حتى يقف بين يدي الله تعالى.**

فإذا ساقتهم الملائكة زُمَراً وأفواجاً تحت كل واحد منهم ما قدّر له، وجمعــوا في صعيد واحد الأولون والآخرون، وأمر الله جل جلاله بملائكة سماء الدنيا أن ينزلوا، فيأخذوا كل واحد منهم إنساناً وشخصاً من المبعوثين إنســاً وجــناً وطيراً ووحشاً، إلى الأرض الثانية، وهى أرض بيضاء من

فضـــة نورانية، وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة، فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات.

ثـــم إن الله يأمر ملائكة السماء الثانية فيحدقون بالكل حلقة واحدة، فـــإذا هم مثلهم عشرين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحدقون بالكل حلقـــة واحـــدة، فإذا هم مثلهم ثلاثين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة، فـــيحدقون بـــالكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم أربعين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة، فيحدقون بالكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم خمسين مرة، ثـــم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحدقون من ورائهم حلقة واحدة، فإذا هم مـــثلهم ســـتين مـــرة، ثم تنزل ملائكة السماء السابعة، فيحدقون بالكل من ورائهـــم حلقـــة واحدة، فإذا هم مثلهم سبعين مرة، والخلق يتداخل ويندرج بعضـــهم في بعض، حتى يعلو على القدم ألف قدم لشدة الزحام، ويخوض الـــناس فـــي العرق على أنواع مختلفة إلى الأذقان، وإلى الصدور، وإلى الركبتيـــن، وإلـــى الحقويـــن، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد في الحمام، ومنه من تصيبه البلة كالعطشان إذا شرب الماء.

وأصـــحاب الرشـــح هـــم أصحاب أهل المناسب وأصحاب الرأي، وأصحاب الكعبين يموتون غرقاً، والملائكة ينادون لا خوف عليكم ولا أنتم تحـــزنون، وهذه الأصناف الثلاثة: أهل الرأي والرشح والكعب، هم الذين تبـــيضّ وجوههـــم، ومن سواهم تسودّ. وملوك الدنيا كالذرّ، كما ورد في الحديـــث فـــي صفة المتكبرين، وليس هم كهيئة الذر عيناً، غير أن الأقدام علت عليهم حتى صاروا كالذر في مذلتهم وانخفاضهم. وقوم يشربون ماءً صـــافياً بـــارداً عذباً، لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكئوس من أنهار الجنة يسقونهم من أنهار الجنة، وقوم على رءوسهم ظل يمنعهم من الحرّ،

فهي الصدقة الطيبة، فلا يزالون كذلك ألف عام، حتى يسمعوا نقر الناقوس، فـتـوجـل له القلوب وتخشع له الأبصار، وتنشقق إليه رءوس المؤمنين والكافرين، يظنون أن هذا عذاب يزداد من هول يوم القيامة، فإذا بالعرش تحملـه ثمانية أملاك مسيرة قدم الملك منهم عشرين ألف سنة، حتى يستقر العرش في تلك الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة، فـتطرق الرءوس لله تعالى، ثم يدفعون بعد الفزع إلى خزنة جهنم، فتصبح أصـواتهم مـن البكاء والضجيج والثبور، لها رجفة عظيمة، حتى يعرض المؤمـنون، ويخـنس البرايا، وترعب الأنبياء، وتخاف العلماء، وتضرع الشهداء من عذاب الله تعالى الذي لا يطيقه شئ، فبينما هم كذلك إذ غشيهم نـور على الشمس الذي كانوا في حرّها، فلا يزالون يموجون بعضهم في بعض ألف عام، والجليل جل جلاله لا يتكلم كلمة واحدة، يذهب الناس إلى آدم علـيه السـلام، فـتقول يـا آدم، يا أبا البشر الأمر علينا شديداً، فإما الكافرون فإنهم يقولون: نرضى ولو إلى النار، فمن شدة ما يذقون يقولون: أنـت الـذي خلقك الله بيديه، ونفخ فيك من روحه، اشفع لنا عند ربك في فصـل القضاء، فيأمر بالكل إلى حيث شاء الله تعالى فيفعل بهم ما يشاء، فـيقول لهم: **عصيت الله تعالى حيث نهاني عن الشجرة، وأنا أستحي أن أكلمه في مثل هذه الحالة، ولكن اذهبوا إلى نوح عليه السلام.**

فـيقومون ألـف عام فيما بينهم، ثم يذهبون إلى نوح عليه السلام، فـيـقـولون له: أنت أول المرسلين، فيذكرون له مثل ذلك، ثم يطلبون مـنه الشـفاعة وفصل القضاء بينهم، فيقول: **إني دعوت دعوة أهلكت بها أهـل الأرض، وإني استحي من الله تعالى أن أسأله في مثل هذه الحالة، ولكـن انطلقوا إلى إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فإنه**

خلـيل الرحمـن، هـو سـماكم المرسلين من قبل، فلعله أن يشفع لكم. فيتشـاورون فـيما بيـنهم ألـف عـام، ثم يأتونه عليه الصلاة والسلام، فـيـقـولـون له: يـا إبـراهـيم، يا أبا المسلمين، أنت الذي اتخذك الله خليلاً، فاشفع لنا إلى الله تعالى، لعله يفصل ما بين الخليقة، فيقول لهم: **إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات، فما جادلت بهن عن دين الله، فأنا استحي مـن الله أن أسأله الشفاعة في مثل هذا اليوم، ولكن اذهبوا إلى موسى، فإن الله تعالى اتخذه كليما، وقربه نجياً، عسى أن يشفع لكم.** فيتشاورون فـيما بيـنهم ألف عام، ولا يزداد الوقت إلاّ شدة، والموقف يفيض بأهله، فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: له يا ابن عمران، أنت الذي اتخذاك الله كلـيما، وقـربك نجيا، وأنزل عليك التوراة فاشفع فينا عند ربك في فصل القضـاء فقد طال المقام، فيقول: **إني سألت الله تعالى أن يأخذ آل فرعون بالسنين، وأن تجعلهم مثلاً للآخرين، وأنا استحي من الله تعالى أن أكلمه فـي مـثل هذا المقام مع أسباب جرت بيني وبينه في المناجاة يلج فيها تعـريض الهلاك إلاّ أنه ذو رحمة واسعة، وربّ غفور، ولكن اذهبوا إلى عيسـى، فإنه أصلح المرسلين يقيناً، وأكثرهم معرفة بالله تعالى، وأشدهم زهداً، وأبلغهم حكمة، فلعله أن يشع لكم.**

فيتشاورون فيما بينهم ألف عام، والحال لا يزداد إلا شدة، والموقف يـزداد ضـيقاً، فيقولون: حتى متى نحن من نبيٍّ إلى نبيٍّ، ومن كريم إلى كريم، ثم يذهبون إلى عيسى عليـه السـلام فيـقـولون له: أنت روح الله وكلمـته، وأنت الذي سماك ربك وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين، فاشـفع لنا عند ربك في فصل القضاء، فيقول لهم: **اُتخِذتُ وأمّي إلهين من دون الله، فكيف أشفع عـنـد من عـبـدت معه، وسـمـيـت له ابناً،**

وسُمي لي أباً، ولكن أرأيتم لو كان لأحدهم كيس فيه نفقة وعليه خاتم، أيقدر أن يبلغ إلى ما في الكيس حتى يفضّ الخاتم؟ فقالوا نعم، فقال لهم: اذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد المرسلين أخا العرب محمداً ﷺ، أدخرت شفاعته لامته، وكثيراً ما آذوه وقومه، حتى شجّوا رأسه وجبينه، وكسروا رباعيته، وبالغوا في أذيته، وإنه لأحسنهم فخاراً، وأكثرهم شرفاً، وهو يقول كما قال الصديق يوسف لأخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾، واتلي عليهم من فضائله ﷺ حتى امتلأت نفوسهم حرصاً على الذهاب إليه، حتى أتوا منبره ﷺ فقالوا: أنت حبيب الله، والحبيب أوجه الوسائط، اشفع لنا عند ربك فقد ذهبنا إلى أبينا آدم، فأحالنا على نوح، وذهبنا إلى موسى فأحالنا على عيسى، وذهبنا إلى عيسى فأحالنا عليك، وليس بعدك مطلب، ولا عنك مهرب، فيقول ﷺ "أنا لها، أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى"، ثم ينطلق ﷺ إلى سرادقات الجلال فيستأذنون له، فيؤذن له، ثم يرفع الحجاب، ويلج العرش، ويخرّ ساجداً ويمكث في سجوده ما شاء الله تعالى، يحمد الله بمحامد ما حمد مثلها بها أحد قط، فيتحرك العرش تعظيماً.

والناس في تلك المدة قد ضاق مكانهم وساءت أحوالهم، وترادفت أهوالهم، وقد طوق كل واحد منهم بما يخزيه في الدنيا، فمانع زكاة البعير يحمل بعيراً على كاهله له رغاء، وثقله يعدل الجبل العظيم، ومانع زكاة البقر يحمل ثوراً له خوار، وثقله يعدل الجبل العظيم، ومانع زكاة الغنم، يحمل شاة على كاهله لها ثغاء، وثقله يعدل الجبل العظيم، والرغاء والخوار والثغاء كالرعد القاصف، ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالاً من الجنس التي بخل به بَراً كان أو شعيراً أثقل ما يكون، ينادي عليه بالويل،

ومـــانـــع زكاة المـــال يحـــمل شجاعـــاً أقرع له زبيبتان، وذنبه قد صب فـــي منخره، وثقله على كاهله كأنه قد طوف بكل رحى في الأرض، وكل واحد منهم ينادي ما هذا؟ فتناديهم الملائكة، هذا ما بخلتم به في الدنيا رغبة وشحاً عليه، وهو قوله تعالى: **﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾**.

وقـــوم قـــد عظمـــت فروجهم وهي تسيل صديداً، يتأذى من نتنها جـــيرانهم؟، وآخـــرون صـــلبوا على جذوع النيران، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم وهم الزناة واللواطة والكذابون، وآخرون قد عظمت بطونهم حتى صارت كالجبال الرواسي، وهم آكلوا الربا، وكل ذي ذنب قد بدا ذنبه عليه ظاهراً.

فيـــنادي الجلـــيل جـــل جلاله: "**يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تُشَفَّع**"، فيقول ﷺ: "**يا رب افصل بين عبيدك فقد طال مقامهم، وقد فصح كل إنسان بذنبه في عرصات القيامة**"، فيأتيه النداء: **يا محمد نعم**.

ثـــم يأمر الله الجنة فتزخرف ويؤتى بها، لها طيب أعبق ما يكون وأزكـــي، فـــيوجد ريحهـــا من مسيرة خمسمائة عام، فتبرد النفوس وتحيا القلوب، إلا من كانت لهم عملة خبيثة فإنهم يمنعون من ريحها، فتوضع عن يميـــن العرش. ثم يأمر الله تعالى أن يؤتي بالنار، فترعب وتفزع، فيأتون بها على أربعة قوائم يقادون بسبعين ألف زمام، في كل زمام سبعون ألف حلقـــة، لو جمع حديد الأرض كله ما عدل منها حلقة واحدة، على كل حلقة ســـبعون ألف زبانيّ، لو أمر الزبانيّ منهم أن يدكّ الجبال لدكها، وأن يهدّ الأرض لهدّها، فإذا لها شهيق ودويّ وشرر ودخان يفور، حتى تسدّ الأفق ظلمة، حتى إذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام تفلتت من يد الزبانية، حتى تأتي على أهل الموقف ولها صلصة وتصحيق وسحيق وشهيق، فيقال

ما هذا؟، قال: هي النار تفلتت من أيدي الزبانية، ولم يقدروا على إمساكها لعظم شأنها، فيجث الكل على الرُكب حتى المرسلون، ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى، الكل على العرش، وهذا قد نسى الذبيح، وهذا قد نسي هارون، وهذا قد نسي مريم، ويجعل كل واحد منهم يقول يا ربي نفسي نفسي، لا أسألك إلا نفسي، ومحمد ﷺ يقول: يا رب أمتي أمتي، سلمها ونجها وليس في الموقف من تحمله ركبتاه، وهو قوله تعالى ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم﴾.

وعند تفلتها يكون من الحنق والغيظ وهو قوله تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾، فيسير الرسول ﷺ بأمر الله تعالى ويأخذ بحزامها ويقول لها: ارجعي مدحورة إلى خلفك حتى تأتي أفواجك، فتقول خلّ سبيلي يا محمد فإنك عليّ حرام، فينادي منادٍ من سرادقات العرش: اسمعي له واطيعيه وينادي منادٍ من سرادقات الملائكة: اسمعي يا نار وأطيعي محمداً ﷺ، ثم تجذب، وتُجعل عن شمال العرش، ويتحدث أهل الموقف بحديثها، فيخفّف وجلهم، وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾.

فهناك ينصب الميزان، وهو كفّتان، كفّة عن يمين العرش من درّة بيضاء، وكفة عن يساره من ظلمة ثم يكشف الجليل جل جلاله عن ساق فيسجد الناس كلهم تعظيماً وتواضعاً لكبريائه إلا الكفار، والذين قد أشركوا به أيام حياتهم، وعبدة الأوثان، وما لم ينزل به سلطان، فإن صياصيهم تعود حديداً فلا يقدرون على السجود، وهو قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾.

فبينما الناس ساجدون إذ نادي الجليل جل جلاله بصوت يسمعه من بعيد كما يسمعه من قريب: "**أنا الملك الدّيان**"، ثم يقضي بين البهائم، ويقتص للجماء من القرناء، ويفصل بين الوحوش والطيور، ثم يقول لهم كونوا تراباً، ثم تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون لله حديثاً، فحينئذ "**يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً**، ويتمنى الكافر فيقول: "**يا ليتني كنت تراباً**".

ثم يخرج النداء من قبل الله تعالى: **أين اللوح المحفوظ؟** فيؤتى به، فيري أنه هرج عظيم، فيقول الله تعالى: **أين سطرت فيك من زبور وتوراة وإنجيل وفرقان؟**، فيقول يا رب سل الروح الأمين، فيؤتى به يرعد وتصطك ركبتاه، فيقول الله تعالى: **يا جبريل، هذا اللوح المحفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامي وروحي**، قال: نعم يا رب، قال: **ما نقلت منه؟**، فيقول: أنهيت التوراة إلى موسى، وأنهيت الزبور إلى داود، وأنهيت الإنجيل إلى عيسى، وأنهيت القرآن إلى محمد، وأنهيت إلى كل رسول رسالته، وإلى أهل الصحف صحفهم. فإذا بالنداء: **يا نوح**، فيؤتى به ترعد ركبتاه، وتصطك فرائضه، فيقول له: **يا نوح، زعم جبريل أنك من المرسلين**، فيقول: صدق يا رب، فيقال: **ما فعلت في قومك؟** فيقول: **دعوتهم ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً**، فإذا بالنداء **يا قوم نوح**، فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقول: **هذا أخوكم نوح زعم أنه بلغكم الرسالة**، فيقولون: كذب، ما بلغنا من شئ، وينكرون الرسالة، فيقول الله: **يا نوح ألك عليهم بيّنة؟** فيقول: نعم يا ربي بيّنتي عليهم محمد ﷺ وأمته، فيقولون: كيف ونحن أول الأمم وهم آخر الأمم؟، فيؤتي بالنبي ﷺ، فيقول الله سبحانه: **يا محمد، هذا نوح يستشهدك، أفتشهد له بتبليغ**

الرســالة. فــيقرأ الرسول ﷺ: ﴿**إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه...**﴾ إلى آخر الســورة، فــيقول الجلــيل جل جلاله: **قد وجب عليكم القول وحقت كلمة العذاب على الكافرين**، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن ولا حساب.

ثــم ينادي: **أين عاد؟** فيفعل النبى بهم ما فعل مع قوم نوح، فيشهد عليهم مع خيار أمته فيتلو: "**كذبت عاد المرسلين**"، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلـــى النار كما فعل بقوم نوح. ثم ينادي **يا صالح ويا ثمود**، فيأتون، فيتلو النبي ﷺ: ﴿**كذبت ثمود المرسلين**﴾.. إلى آخر القصة، فيفعل بهم مثل من كان من قبلهم.

ولا تزال تخرج أمة بعد أمة، وقد أخبر عنهم القرآن بياناً وذكرهم فــيه إشــارة، كقوله تعالى: ﴿**وقروناً بين ذلك كثيرا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولهم كذبوه**﴾، ﴿**والذين من بعدهم لا يعلمهــم إلا الله جــاءتهم رســلهم بالبينات**﴾، وفى هذا تنبيه على أولئك القــرون الطاغية كقوم تارخ ويارخ وإسا وما أشبه ذلك، والنبي يشهد لهم حــتى ينتهــي النداء إلى أصحاب الرس وتُبع وقوم إبراهيم، لا يرفع لهم ميزان، ولا يوضع لهم حساب، وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون.

ثــم يــنادي بموسى بن عمران، فيؤتى به كأنه ورقة في يوم ريح عاصــف، وقــد أصفّر لونه واصطكت ركبتاه، فيقول: **يا ابن عمَران إن جبريل يزعم أنك قد بلــغت الرسالة والتوراة، أفتشهد له بالبلاغ؟**، فيقول: نعم. قيل ارجع إلى منبرك، **واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك**، فيرتقي ثم يقرأ، فينصت كل من في الموقف، فيؤتى بالتوراة غضة طرية كحسنها يوم أنزلت، حتى يتوهم الأحبار أنهم ما سمعوها ولا عرفوها.

ثــم يــنادي: يا داود، فيؤتى به وهو يرعد كأنه ورقة في يوم ريح عاصف، تصطك ركبتاه، ويصفر لونه، فيقول: **ارق منبرك، واتل ما أوحي إلــيك من ربك**، فيقرأ وهو أحسن الناس صوتا، وفي الصحيح أنه صاحب مزامــير أهــل الجنة، فيسمع صوته المقتول أمام التابوت فيقتحم الجموع، ويتخطى الصفوف حتى ينتهي إلى داود عليه السلام فيتعلّق به ويقول: أما وعظــك الزبور حتى نويتِ شراً؟ فيخجله ويسكت متعجماً، فيرتج الموقف لمــا يري الناس من شأن داود، ثم يتعلق به ويسوقه إلى الله تعالى، فيقول: يا ربّ أنصفني منه فإنه تعمد بي الهلاك، وجعلني أقاتل أمام التابوت حتى قتلــت، فــتزوج امرأتي، وعنده يومئذ تسع وتسعون امرأة غيرها، فيلتفت الجليل جل جلاله، فيقول له: **أصدق فيما يقول يا داود؟** قال يا ربّ نعم، قد كــان ذلك، وهو منكس الرأس حياء من الله تعالى وتوافقاً لما ينزل به من العذاب، ورجاء فيما وعده الله تعالى من المغفرة، فيقول الله تعالى لصاحبه: **قــد عوضــتك عــن هذا كذا وكذا من القصور والحور والولدان**، فيقول: رضيت يا ربّ، ثم يقول لداود: **اذهب فقد غفرت لك.**

وكــذا شــأنه سبحانه وتعالى مع من أكرمه، فيعطى عنه من سعة رزقه، ثم يقول له: **ارجع إلى منبرك واقرأ ما بقي من الزبور**، ثم يؤمر أن ينقســم مــن أرســل إلــيهم الــزبور قسمين: قسم مع المؤمنين وقسم مع المجرمين.

ثم ينادي: أين عيسى ابن مريم؟ فيؤتى بــه فــيقول له الله تعالى: **"أأنــت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله"** فيحمد الله تعالى ما شاء، ويثني عليه ثناء كثيراً، ثم يعطف على نفسه بالذمّ والاحتقار ويقول: **"ســبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته**

تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب". فيضحك الله تعـالى ويقول: "هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم"، ثم يقول: صدقت يا عيسـى ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل الذي بلغك جبرائيل، فيقول: نعم يا ربّ، فـيقرأ فتـشـخص له الرءوس من حسن ترديده فإنه أحسن الناس رواية، فيؤتى به غضاً طرياً، حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا منه آية، ثم ينقسـم النصـارى قسـمين، فالمؤمـنون مـع المؤمنين، والمجرمون مع المجرمين.

ثم يخرج النداء من قِبل الحق تبارك وتعالى: أين محمد ﷺ، ويقول الله تعـالى: يـا محمد هذا جبريل يزعم أنك بلغت الرسالة، فيقول نعم يا رب، فيقول: ارجع إلى منبرك واقرأ، فيقرأ القرآن فيؤتى به غضاً طرياً له حـلاوة وعلـيه طـلاوة ويستبشـر منه المؤمنون، فإذا وجوههم ضاحكة مستبشـرة، ويستثنى منه المجرمون، فوجوههم مغبّرة، عليها قترة، وعلى السـؤال المتقدم للرسل والأمم يقول الله تعالى فلنسئلن الذين أُرسل إليهم ولنسـئلن المرسلين"، فيجمع الله الرسل فيقول "ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب".

فـإذا فرغـت الرسل من قراءة الكتب خرج النداء من سرادقات الجـلال: ﴿وامـتازوا اليوم أيها المجرمون﴾. فيرتج الموقف، ويقوم فيه رَوْع عظيم، والملائكة امتزجت ببني آدم، ثم يخرج النداء: يا آدم ابعث من بنـيك بعثاً إلى النار، فيقول يا ربّ مـن كـم كـم؟ فـيقـول له: مـن كـل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فيستخرج مـن سـائر الملحديـن والغافلين والفاسقين، حتى لا يبقى إلا قدر حفنة التراب، فمنهم من يرفعهم الميزان، فإذا سيئاته ترجح على حسناته، وكل ما

وصلته الشريعة لابد له من الميزان، فإذا اعتزلوا أيقنوا أنهم هالكين، وقالوا: آدم ظلمنا، ومكن الشياطين من نواحينا، فإذا النداء من قبل الله تعالى: ﴿**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب**﴾. فيستخرج لهم كتاباً عظيماً يسدّ ما بين المشرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلائق، فما "**كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً**"، وفي ذلك أن أعمال الخلائق تعرض على الله كل يوم، فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها في هذا الكتاب العظيم، وهو قوله تعالى: ﴿**إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾، ثم ينادي فرداً فرداً، ثم يحاسب كل واحد منهم، فإذا الأقدام تشهد، وهو قوله تعالى: ﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**﴾.

ثم يدفعون بعد الفراغ إلى خزنة جهنم فترتفع أصواتهم بالبكاء والضجيج والثبور، لهم رجة عظيمة، حتى يعرض المؤمنون الموحدون، فتحدق الملائكة بهم تقول: "**هذا يومكم الذي كنتم توعدون**". والفزع الأكبر عند أربعة مواضع: عند نقر الناقور، وعند تفلّت جهنم من الخزنة، وعند إخراج آدم بعث النار، وعند رفع الناس إلى الخزنة.

فإذا بقي الموقف ليس فيه إلا المؤمنون والمسلمون والمحسنون والعارفون والصدّيقون والشهداء والصالحون والأنبياء والمرسلون، ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق، فيقول الله تعالى: **يا أهل الموقف من ربكم؟** فيقولون الله، فيقولون لهم: أتعرفونه؟ فيقولون نعم، فيجلس لهم ملك عن يسار العرش لو وضعت البحار في نقرة إبهامه ما ظهرت، فيقول بأمر الله تعالى: أهلاً بكم أنا ربكم، فيعوّذون منه بالله، ثم يتجلى لهم سبحانه في صورته التي كانوا يعرفونها ويسمعونها وهو يضحك، فيسجدون له

جميعهم، فيقول لهم الحق: أهلاً بكم، ثم ينطلق سبحانه إلى الجنة فيتبعونه، فيمرّ بهم على الصراط والناس أفواج، المرسلون، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم المحسنون والعارفون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ويبقى منهم المسلمون، منهم المكبوب على وجهه، ومنهم المحبوس في الأعراف، ومنهم من قصر على عامّ الإيمان، ومنهم من يجوز على الصراط في مائة عام، وآخر يجوز في ألف عام، ومع ذلك لن تحرق النار من رأي ربه عياناً.

وفي الصحيح أن أول ما يقضي الله فيه الدماء، وأن أول ما يعطي أجورهم هم الذين ذهبت أبصارهم، قيل: ينادي يوم القيامة بالمكفوفين، فيقولون له: أنت أحّق من ينظر إلينا، قال: ثم يستحي الباري جل جلاله منهم، ويقول لهم: **أذهبوا إلى ذات اليمين**، وتعقد لهم راية، وتجعل بيد شعيب عليه السلام، فيسير أمامهم إلى الجنة، ومعهم ملائكة النور يزفونهم إلى الجنة كما تزف العروس، فيمرّ بهم على الصراط كالبرق الخاطف، وصفة أحدهم الحلم والصبر والعلم، : كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادي: **أين أهل البلاد**، ويريد المجذومين ومن شاكلهم، ويؤتى بهم ويحييهم الله بتحية طيبة بالغة، ويأمرهم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم راية خضراء، وتجعل بيد أيوب عليه السلام، فيعبر أمامهم إلى الجنة، وصفتهم صبر وحلم وعلم كعقيل بن أبي طالب، ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادي: أين أهل الشباب المتعففون من هذه الأمة؟، فيؤتى بهم إلى بين يدي الله تعالى، فيرّحب بهم ثم يأمرهم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم

رايـــة خضـــراء، وتجعل في يد يوسف الصديق عليه وعلى نبيينا الصلاة والســـلام، ويسير أمامهم إلى الجنة، وصفتهم صبر وعلم وحلم كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم يخرج النداء: **أين المتحابون في الله تعالى؟**، فيؤتى بهم إلى الله فيرحـــب بهـــم ويقول ما شاء الله أن يقول، ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم راية صفراء، وتجعل بيد هارون عليه السلام، ويسير أمامهم إلى الجـــنة، وصـــفة المتحابيـــن في الله صبر وحلم، لا يسئ ولا يسخط، ولا يرضى بسيئ كأبي، أعني عليَّ بن أبى طالب ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثـــم يخـــرج النداء: أين الباكون من خشية الله؟ فيؤتى بهم إلى الله تعـــالى فيزنون دموعهم ودماء الشهداء ومداد العلماء فيرجح الدُمع، فيؤمر بهـــم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم راية ملونة، لأنهم بكوا بأنواع مختلفة من الـــبكاء، هذا بكى خوفاً، وهذا بكى طمعاً، وهذا بكى ندماً، وتجعل بيد نوح علـــيه الســـلام، فتطلـــب العلماء التقدمْ عليهم ويقولون: عِلْمُنا أبكاهم، فإذا بالنداء على الرسل، فتوقف الزمرة، ثم يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء، فـــيرجح دم الشهداء، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم راية من عنده، وتجعـــل فـــي يـــد يحيى عليه السلام، ثم ينطلق بهم، فتهّم العلماء بالتقدم، ويقولـــون: نحن أحق منهم بالتقدم، فيضحك الله تبارك وتعالى ويقول لهم: **أنـــتم كانبيائي، واشفعوا فيمن تشاءون**، فيشفع العالم في جيرانه وإخوانه، ويأمـــر كـــل واحد منهم أن ينادي في الناس، ألا إن فلاناً العالم قد أُمِر أن يشفع، فـــمن قضى له حاجة، أو أطعمه لقمة حين جاع، أو سقاه ماء حين عطش فليقم، فإنه يشفع له.

وفـــي الصـــحيح أن أول مـــن يشفّعون المرسلون، ثم الأنبياء، ثم العلماء، ثم تعقد لهم راية بيضاء، وتجعل بيد إبراهيم عليه السلام فإنه أشدّ المرســـلين، ثـــم ينادي: **أيـــن الفقراء؟** فيؤتى بهم إلى بين يدي الله تعالى، فـــيقول لهـــم: **مرحبا بمن كانت الدنيا سجنهم**، ويأمرهم إلى ذات اليمين، ويعقـــد لهـــم رايـــة صـــفراء، وتجعل بيد عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويسير أمامهم إلى الجنة.

ثم ينادي أين الأغنياء، فيؤتى بهم إلى بين يدي الله تعالى، فيعدد لهم ما وصف لهم إلى خمسمائة عام، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وترفع لهم رايـــة ملونـــة وتجعل بيد سليمان بن داود عليه السلام، ويسير أمامهم إلى الجـــنة وفي الحديث: ما شغلكم عن عبادة الله تعالى؟، فيقولون: أعطانا الله ملكـــاً شـــغلنا به عن القيام بحقه، واللذات بذكره في دار الدنيا، فيقال: من أعظم ملكاً، أنتم أم سليمان؟ فيقولون: بلى سليمان، فيقال لهم: **ما شغله عن القيام بحقيّ وذكري**. ثم ينادي **أين أهل البلاء؟**، فيؤتى بهم أنواعاً، ثم يقال لهـــم: أي شـــئ شغلكم عن عبادة الله تعالى؟ فيقولون: ابتلانا الله في الدنيا بأنواع من البلايا والآلام شغلتنا عن ذكره والقيام بحقه، فيقال لهم: من أشد بلاء أنتم أم أيوب؟ فيقولون: بلى أيوب أشد بلاء، فيقول لهم: **ما شغله عن القـــيام بحقـــي واللذات بذكرى**، ثم ينادي: أين الشباب العطرة والمماليك، فيؤتى بهم، فيقول لهم: **ما الذي شغلكم عن أمري؟** فيقولون: **أعطيتنا** حسناً وجمـــالاً فتـــنا بـــه، ويقـــول المماليك: شغلنا رق العبودية في الدنيا، وكنّا مشـــغولين عـــن القيام بحقك، فيقال لهم: **أيهم أكثر جمالاً أنتم أم يوسف**، فيقولون: بلى يوسف، فيقال: كان في رقّ العبودية، ما شغله ذلك عن القيام بحقـــي، ثـــم ينادي: **أين الفقراء؟**، فيؤتى بهم أنواعاً فيقال: ما الذي شغلكم

عــن عبادة الله؟ فيقولون: ابتلانا الله تعالى في دار الدنيا بفقر مدقع، شغلنا عــن القيام بحقه، فيقال لهم: من أشد فقراً أنتم أم عيسى؟ فيقولون عيسى. فيقال: **ما شغله ذلك عن القيام بحقي.**

فمــن ابــتلى بشئ من هذه الأربع فليذكر صاحبه، وقد كان رسول الله ﷺ يقــول: **﴿اللهــم إني أعوذ بك من فتنة الغنى والفقر﴾**، وقيل كان بالمسيح الفقر فاعتبر بالمسيح، فقد صح أنه لبس جبة واحدة عشرين سنة، ومــا كــان له في سياحته إلا مشط وكوز، فرأي يوماً رجلاً يشرب بيده، فرمى بالكوز، ورأي رجلاً يسّرح لحيته بيده فرمي المشط، لم يمسكها بعد ذلك.

وكــان يقــول: **دابتــي رجلاي، وبيوتي كهوف الأرض، وطعامي نباتها، وشرابي أنهارها، أي غنيتي أكثر من هذا؟.**

وقــيل: يؤتــى بعابد يوم القيامة، فيقول الله تعالى: **كيف حالك في الدنــيا؟**، فيقول يا رب عبدتك خمسمائة سنة في جزيرة أحدق بها البحر، ومــا تأنســت فيها إلا بذكرك صوماً وصلاة حتى مت ساجداً، فيقول الله: **صــدقت، أدخل الجنة برحمتي**، فيقول: يا ربّ بل بعملي، فيقول: **هلمّ حتى نتحاســب، مــن قــواك على عبادتي خمسمائة عاماً في الجزيرة صوماً وصلاة؟** فيقول: أنت ربي، فيقول: **من أنبت لك رمانة تثمر كل حبة تقتات بهــا؟** فــيقول: أنــت رب، فيقول: **من فجّر ينبوعاً من ماء عذب في تلك الجزيــرة المحدق بها البحر الأُجاج تشرب منها وتغتسل؟** فيقول: أنت يا رب، فــيقول: **من أجابك حين دعوت وقلت: اللهم اقبضني ساجداً؟** فيقول: أنت يا رب، ثم يرفــع له الميزان، فإذا عبادة خمسمائة سنة ما وفّت نعمة البصر، فيقول عزّ وجلّ: **اذهبوا به إلى النار**، ثم يردّه إليه بأمره من بعض

الطـــريق، ثـــم يضحك الله تبارك وتعالى ويقول له: **ادخل الجنة برحمتي، فنعم العبد كنت لي.**

وكذلك يأتي رجل يوم القيامة فيحاسب فيرمى به إلى النار، فيلتفت في سيره إلى ورائه، فيقول الله تعالى: **ردّوه**، فإذا أتوا به يقول الله تعالى: **مـــالك التفـــت أيها العبد السوء، مالك تنظر في مسيرك؟** فيقول: يا ربّ، كنـــت أعصيك وأنا أرجوك، ومتّ وأنا أرجوك، وأمرت بي إلى النار وأنا أرجوك، فجعلت التفت نحوك، فيقول الله عز وجل: **رجوت كريماً، وطمعت رحيماً، اذهب فقد غفرت لك.**

وربمـــا كان الغفران من الله تعالى والمحاسبة في حقوق الناس إلا القـــتل متعمداً، فإنه ليس يغفر أبداً كالشرك، إلا من أسلم من الشرك وتاب مـــن القـــتل توبة خالصة، فإن القاتل قتل من أحياه الله تعالى، وفي بعض الكتب: **ما أظلمك، شاركتني في فعلي، ألم تر كيف فعلت؟، أنا أحيي وأنت تميت أيها القاتل وإلا فقد بارزتني بالمحاربة.**

والكـــبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص، فأكرمهم على الله يخـــرج من النار بعد ألف سنة، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول في كلامه: يا ليتني كنت ذلك الرجلّ، فإنه كان عالماً بأمور الآخرة. قـــال: ويؤتـــي يـــوم القيامة برجل فما يوجد حسنة يرجح بها ميزانه، وقد اعتدلـــت بالسّـــوية، فيقول الله تعالى رحمة منه وعلماً: **اذهب في الناس، والـــتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة**. فيجوز خلال العالمين، فما يجد أحداً يكلمه في ذلك الأمر إلا يـــقـــول له: خفت أن يخف ميزاني، فأنا أحوج منك إليها فييأس، فيقول له رجل: ما الذي تطلب؟ فيقول: حسنة، فقد مـــررت علـــى أقوام لهم آلاف الحسنات، فبخلوا عليّ، فيقول الرجل: لقد

لقيتني وما بقي لي إلا حسنة واحدة، وما أظنها تغني عني، هي لك، فينطلق بهـا فرحاً مسروراً، فيقول الله: **مالك؟** (وهو أعلم)، فيقول من أمري كَيْتَ وكَيْـتَ، ثم ينادي سبحانه وتعالى: **يا صاحبه الذي وهبته الحسنة، كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلق به إلى الجنة.** وكذلك تستوى كفتا المـيزان لرجل، فيقول الله تعالى: **لست من أهل الجنة ولا من أهل النار.** فيأتــي الملك بصحيفة مكتوب فيها "أُف" فترجح على الحسنات، لأنها كلمة عقـوق ترجح بها جبال الدنيا، فيؤمر به إلى النار، قال: فيطلب الرجل أن يـردّه الله إلـيه، فيقول الله: **ردوه أيها العبد العاق، لأى شئ تطلب الردّ؟** فـيقول: إلهـي رأيت أبى سائراً إلى النار؟ وأنا لابّد لى منها، وكنت عاقاً لأبـى فـي الدنيا، وهو سائر إلى النار مثلى، فضعّف علىّ عذابي وأنقذه منها. قال: فيضحك الله ويقول: **عققته في الدنيا وبررته في الآخرة، كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أبيك وانطلق به إلى الجنة.**

فمـا مـن أحد يذهب به إلى النار إلا والملائكة توقفه، لعلمهم سرّ أحكـام الآخـرة. ويـنادي بقـوم لاخلاق لهم خلقوا حطبا وحشوا، فيقال **﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾**، فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم **"ما لكـم لا تناصـرون"** فيستسلمون للبكاء، ويعترفون بالذنب، كما قال تعالى: **﴿فاعـترفوا بذنـبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾**، فيدفعون دفعة واحدة إلى النار. وينادي بأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ كهولاً وعجائز وشيوخاً وشباباً ونسـاء، فإذا نظر إليهم مالك خازن النار قال: من أنتم معاشر الأشقياء؟، مالـي أرى أيديكـم لا تغـل، ولا توضـع الأغلال والسلاسل، ولم تسود وجوهكـم، ومـا ورد علـىّ أحسن منكم حالاً؟، فيقولون: يا مالك، نحن أشقياء من أمة محمد، دعنا نبك على ذنوبنا، فيقال: ابكوا فلن ينفعكم البكاء،

من شيخ وضع يده على لحيته ويقول واشيبتاه، ويا طول حزناه، ويا ضعف قوتـــاه، وكم من كهل ينادي وامصيبتاه وأطول مقاماه، وكم من شاب ينادي واشباباه واأسفاه على تغير حسناه، وكم امرأة تنادي واشباباه واهتك سِرتاه، فـــيكون ذلك مقدار ألف عام، فإذا النداء من قبل الله تعالى: **يا مالك أدخلهم النار الباب الأول منها**، فإذا همت النار تأخذ أحدهم قالوا جميعهم **لا إله إلا الله**، قال فتفر النار منهم مسيرة خمسمائة عام، ثم يأخذون في البكاء فتشتد أصـــواتهم، فـــإذا النداء من قبل الله تعالى: **يا نار خذيهم**، فعندئذ تسمع لهم صلصـــلة كالرعد، فإذا همت النيران أن تأخذ قلوبهم، زجرها الملك وجعل يقول: لا تحزن قلباً فيه القرآن، وكان وعاء للإيمان، وإذا الزبانية قد جاءوا بالحمـــيم ليصـــبوا فـــي بطونهم، فيزجرها الملك، ويقول: لا تدخل الحميم والعـــذاب بطونـــا أخمصـــها الرمضان، ولا تحرق النار جباها سجدت لله تعالى، فيردّون فيها حمراً كالفاسق المحلوك، والإيمان يتلألأ في القلوب.

وكذلـــك يكثر صياح رجل في النار حتى يعلو صوته على صوت أهل النار، فيخرج وقد امتحن، فيقول الله: **مالك تصيح أكثر من أهل النار؟**، فـــيقول: لم أيأس ولم أقنط من رحمتك، فيقول الله تعالى: **﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾**، اذهب فقد غفرت لك.

وكذلـــك يخرج من النار رجل، فيقال له: خرجت فبأي عمل تدخل الجنة؟ فيقول: ما أسألكم عنها إلاّ يسيراً، فترفع له شجرة من أشجار الجنة فـــيقول الله تعـــالى: **أرأيتك لو أعطيتك هذه الشجرة، هل تسألني غيرها؟** فـــيقول: لا وعـــزتك يا رب، فيقول الله: **هي هبة مني إليك**، ثم يقول الله تعـــالى: **مـــالك، لعلك أحببتها؟** فيقول: يا رب نعم، فيقول الله: **إن أعطيتك تسألني غيرها؟** فيقول لا وعزتك يا ربّ، فيقول: **هي هبة مني إليك**، فإذا

أكــل مــن ثمرها، واستظّل بظلّها رفُع له شجرة أحسن منها، فيكثر النظر إلــيها، فيقول الله تعالى: **مالك؟ لعلك أحببتها؟** فيقول يا رب نعم، فيقول الله تعــالى: **لعلــك إن أعطيتها لك تسألني غيرها؟** فيقول: يا رب وعزتك لا أسألك غيرها، فيضحك الله منه ويــدخــله الجنة، ويجعل له مثلها أضعافاً مضاعفة.

وقد أكثرت من إيراد تلك الحكايات في الأحياء (إحياء علوم الدين)، وفــي الخــبر أن الله تعــالى حين يتجلى لهم يقبض السموات السبع يميناً، والأرضــين شــمالاً، وهو قوله تعالى: **﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده﴾**، والسجل اسم لما يكتب فيه، وكل ما ليس فــيه كتابة ولا رقم، قيل قرطاس، وفي الصحيح "**أن أول طعام يأكله أهل الجنة كبد الحوت، فيشوى ويعطى لهم**". وقيل إنهم يدخلون الجنة على قامة آدم علــيه الســلام جــرداً مرداً مكحلين، قال الله تعالى: **﴿والوزن يومئذ الحق﴾** الآية.

ومــن غريب الآخرة أن الرجل يؤتى إلى الله تعالى وتقدس، فيوقفه بيــن يديه، ويزن حسناته وسيئاته، وفي ذلك يظن أن الله تعالى ما حاسب أحداً سواه، ولعل في تلك اللحظة حاسب آلاف ألوف لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، كل منهم يظن أن الحساب له. كذلك أن بعضهم لا يرى بعضاً، ولا يســمع بعضهم بعضاً، كل منهم تحت أستاره، فسبحان من هذا شأنه، وســبحان مــن هذه بعض قدرته، وعجائب حكمته، خاب وخسر وذَلّ من عظّــم غــيره تعالى، **﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾**، وفي قوله تعــالى: **﴿ســنفرغ لكــم أيهــا الــثقلان﴾**، سرّ عجيب من أسرار الملك والملكوت، إذ ليس لملكه حدّ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

وفـــي هذه الحكاية يأتي الرجل إلى ولده فيقول له: يا بني، كسوتك ثـــياباً حيث لا كنت تقدر أن تكسو نفسك، وأسقيتك شراباً ولفيّك حين كنت صغيراً عاجزاً، فكم من فاكهة عّنيتها عليّ منها فابتعتها لك، حسبك ما ترى من هول فزع يوم القيامة، وسيئات أبيك كثيرة، فتحمل عليّ منها ولو سيئة واحـــدة فتخفف عنى، أو تعطينى حسنة واحدة تزيد بها ميزاني، فيفر منه الولـــد ويقول: أنا أحوج منك إليها، وكذلك تفعل الفصيلة والصاحبة، وهو قولـــه تعـــالى: **﴿يـــوم يفـــرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصـــيلته التى تؤويه﴾**. وقد ورد الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: **﴿ يحشر الـــناس عراة**، قالت عائشة: **وسوأتهم ينظر بعضهم على بعض**، فقال: **لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾**، يريد أن شدة الهول، وعظم الكرب يغنيهم أن ينظر بعضهم إلى بعض.

فـــإذا اســـتقرّ الـــناس في صعيد واحد طلعت عليهم سحابة سوداء، فأمطـــرتهم صـــحائف منتشرة، فإذا صحيفة المؤمن ورقة ورد، وصحيفة الكافـــر ورقـــة سدر، والكل مكتوب، وتتطاير الصحف، فإذا هي تقع يمين المؤمن وشمال الكافر، وهو قوله تعالى: **﴿ونـــخـــرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾**، ولو ظل مطوياً لم يجد أن ينشره من تزاحم الخلق، وتعلّق بعضـــهم ببعض. وحكى عن بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يـــورد بعـــد جواز الصراط، إلا السبق الجسور، وفيه هلاك أكثر الخلق، والســـبعون ألفـــاً الذين يدخلون الجنة بغير عذاب ولا حساب، لا يرفع لهم مـــيزان ولا يـــأخذون صحفاً، وإنما هي براءة مكتوب فيها: **(لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذه براءة فلان بن فلان، قد غفر الله له وسعد سعادة لا شقاء بعدها أبداً)** فما من شئ أسر من ذلك اليوم، وذلك المقام.

والرســـل يومئذ على المنابر، والعلماء والأولياء على منابر صغار دونهم، ومنبر كل واحد منهم على قدره، والعالمون العاملون على كراسيّ مـــن نور، والشهداء والصالحون كقرّاء القرآن والمؤذنين كلهم على كثبان مـــن المسك، وهذه الطائفة العامّة أصحاب الكراسي الذين يطلبون الشفاعة مـــن آدم ونوح على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ.

وكل مذكور يأتي شخصه يوم القيامة، فقد جاء في الخبر أن القرآن يأتـــي يـــوم القيامة في صورة رجل حسن الخلق، فَيَشْفَع ويُشَفّع، والإسلام مثله فيختصم ويخاصم، وقد ذكرنا حكاية الإسلام مع عمر بن الخطاب ﷺ فـــي إحياء علوم الدين، وبعد مخاصمته يتعلق به من يشأ الله، فيهوى بهم إلـــى الجـــنة، وكذلك تأتي الدنيا في صورة عجوزة شمطاء أقبح ما تكون، فـــيقال للـــناس: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من هذه، فيقال لهم: هذه الدنـــيا التى كنتم تتحاسدون عليها، وتتباغضون فيها، وتتهاجرون لأجلها، كذلـــك تأتـــي الجنة كأنها عروس تزّف، والمؤمنون حولها قد أحدقوا بها، وهـــي أحســـن مـــا تكون، وتحوط بها كثبان المسك والكافور، عليها نور يتعجب منها كل من في الموقف حتى تدخل بهم الجنة.

فانظر رحمك الله إلى جود القرآن، والإسلام.

ومـــرّد الكـــتاب، وقصدنا في ذلك الأمر الاختصار، لسلوك سبيل السنة، ولا يلتفت إلى البدع الطارئة على الشرط المظهر من شياطين الأنس والجن.

نســـأل الله سبحانه وتعالى السلامة والعظمة، والتوفيق من الخلل والخطـــأ، والـــزيادة والزلل، إنه ولي الإجابة، ومولى الامتنان، الحمد لله علـــى الـــتمام، والصلاة والسلام على محمد المظلّل بالغمام، رسول الربّ الملك السلاّم، المفضّل على آله وصحبه الكرام، ما انطوت الليالي والأيام.

فهرس الكتاب

3- كتاب الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة

أعمال الدكتور خالد حربى

العمل	بيانات النشر
1- الرازى الطبيب وأثره فى تاريخ العلم العربى.	الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، الإسكندرية 1999.
2- نشأة الإسكندرية وتواصل نهضتها العلمية.	الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، الإسكندرية 1999.
3- بُرء ساعة للرازى (دراسة وتحقيق).	الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، الإسكندرية 1999.
4- خلاصة التداوى بالغذاء والأعشاب.	الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، الإسكندرية 1999. الطبعة الثانية، 2000 توزيع مؤسسة الأهرام.
5- الأسس الأبستمولوجية لتاريخ الطب العربى.	الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.
6- الرازى فى حضارة العرب، (ترجمة، وتقديم وتعليق).	الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.
7- سر صناعة الطب للرازى (دراسة وتحقيق).	الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.
8- كتاب التجارب للرازى	الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.
9- كتاب جراب المجربات وخزانة الأطباء للرازى (دراسة وتحقيق).	الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.

10- العولمة بين الفكرين الإسلامى والغربى "دراسة مقارنة". الطبعة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية 2003.

11- المدارس الفلسفية فى الفكر الإسلامى (1)، "الكندى والفارابى" رؤية جديدة. الطبعة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية 2003.

12- الأخلاق بين الحلال والحرام، والصواب والخطأ. الطبعة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية 2003.

13- العولمة وأبعادها ضمن مجلد "رسالة المسلم فى حقبة العولمة" الصادر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر، رمضان 1423 هـ، نوفمبر 2003.

14- دور الإستشراق فى موقف الغرب من الإسلام وحضارته (بالإنجليزية). دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، 2003.

15- شهيد الخوف الإلهى، الحسن البصرى. الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2003.

16- بنية الجماعات العلمية العربية الإسلامية. الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2003.

17- علوم الحضارة الإسلامية وأثرها فى الآخر. الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2004.

18- مقالة فى النفس للرازى (دارسة وتحقيق). الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2004.

19- التراث المخطوط: رؤية فى التبصير والفهم (1) علوم الدين لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2004.

20- التراث المخطوط: رؤية فى التبصير والفهم (2) المنطق. الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2004.

